حسن إمامي
قرية ابن السيد
رواية
حسن إمامي
قرية ابن السيد

قرية ابن السيد

الجزء الأول
(بداية القرن العشرين)

الحلول

قرية ابن السيد، تتموقع بين قمم الأطلس الصغير،حيث تتغير أشكال وصف هذه الأماكن الموغلة بين أحضانها. فهي مرتفعات حين تنظر إليها من السفوح المتشعبة، و منحدرات حينما تراها من علٍ
فتكون مضطرا للنزول عبرها إلى وديانها... تعطيك الحياة داخلها جنات صغيرة منبسطة تهب رغد العيش لساكنتها من القبائل التي عانقت الوجود والحياة فيها، بحبٍّ لفصولها والتحام مع طبيعتها. يختلف مفهوم السعادة بين البشر. وحينما تسأل أحد أفراد المنطقة تجده مرتاحا مستقرا، لا تُداخله هموم كبرى خارج ظروف العيش والطقس والحاجيات الحياتية اليومية البسيطة التي رسم إطار حلمها واشتياقها ما تتوفر عليه المنطقة من عناصر حياة، و ما تآلفت عليه القلوب قبل الرغبات بين أفراد الأسرة والعشيرة أو القبيلة.

تسميتها نسبة لشيخ زاهد متجول عبر البلاد الاسلامية، عَمّر في أقاليم عدة. بعد أن توفيت زوجته، تركت له ابنا صغيرا تحمل تربيته. آثر مرافقته معه أينما حل وارتحل، مؤمنا بقضاء الله وقدره ورعايته له ولابنه. شيخنا هذا حافظ للقرآن ومتفقه في الدين، ورع، قانع من ملذات الدنيا، محب للعبادة والاعتكاف.

حل الشيخ بهذه المنطقة الشبه جبلية حيث يسكن أناس متفرقون، كل له أراضيه التي يحرثها وقطيع أبقاره وأغنامه التي يرعاها، ودوابه، ومجال حياته

و أسرته. يجمع هؤلاء منبع الماء الوحيد الذي ينبجس من جوف الجبل، من جب في غار عميق كأنه بحيرة تفيض بالماء والحياة، يكنز الغار أسرارا كبيرة ترتبط بها حكايات وأساطير تتفاوت في صور خيالها ونسجها بين الطفل الصغير و العجوز المسنة، في زاوية من منزل ما من منازل هذه المنطقة المنتشرة على هذا السفح المتوسد لجبل متدرج، والمخضر بالأشجار و الحقول.

بعتاده ودابته، وبمسافة عن نبع الماء، وحتى لا يربك الجماعة أو يقلق نساءها وهن في أشغال السقي أو غسل الصوف أو الثياب، استقر الشيخ فوق ربوة، تُرى من ساقية العين خيمةً بيضاءَ، يلعب أمامها طفل صغير بهدوء، ولا يظهر الشيخ إلا قليلا حينما تخلو العين من الأحياء. تجده نازلا لسقي الماء. لكن ضرورة التعارف والتبادل للمنافع تفرض الاحتكاك مع الناس. حتى الطفل الصغير كان له دور في هذا التواصل مع الناس عبر الالتقاء مع الصبيان وتبادل الإشارة والابتسامة والكلمة واللعب في الحقول الممتدة عبر الرؤية البصرية.

لم يكن الشيخ ليمنع ابنه من اللعب والمرح، لكن خوفه عليه كان يجعله شديد الحرص على رؤيته أمامه. مما يضطر بعض الصبيان للإتيان قرب خيمة. يحملون أوصافها وأوصاف شيخها وطفلها، و كيفية صلاته في الصباح و المساء، و كرمه مع الصبيان ببعض التين والفواكه اليابسة.

ارتسمت عند الساكنة المتفرقة، انطباعات طيبة حول الشيخ. وبدا بعضهم بدرجة كرمهم يرسل بعض الطعام و اللبن... لم يكن الشيخ ليرفض، ولكن دعاءه المتميز وابتسامته التي تفترش لحيته البيضاء الناصعة وبساطته، جعلت كبار المنطقة يتقربون إليه، لامسين ورعا ودينا واحتراما عند شيخنا. و لم يكن حدسهم ليخذلهم، فقد اكتشفوا رجلا متصوفا، زاهدا، ورعا، متفقها، حافظا للقرآن والحديث والسير... فكان أن أصبح شيخنا ضيفا رسميا في كل مناسبة وعيد. ولم تمر أيام حتى أنشأ لهم كُتابا لحفظ القرآن، جمع له صبيان المنطقة، وخلق لهم دويا كدوي النحل يثير فضول الكبار وحتى جماعات النساء حين المرور بجانب الكتاب و المسجد الجديد الذي أصبح مشهورا في المنطقة، بعد أن كانوا يؤدون الصلاة في جناح غرفة مفتوحة على فضاء الحقول في إحدى منازل القرية.

أصبح شيخنا الإمام كاتب العقود ومُوزع الصدقات والزكاة وقاسم التركات ومُحل النزاعات المالية والتجارية والأسرية... أصبح أبا روحيا نموذجيا لم تقربه شبهة ولا سوء نية... حتى إنه رفض عرض الزواج وبقي عصاميا في تنظيف لباسه وطهي طعامه والاعتناء بابنه ما أمكن. مرت سنتان ونصف تقريبا، أصبح للمنطقة معها صيتٌ وشهرة بفضل شيخها الذي كان يهتم كذلك حتى بالعابرين والمسافرين، فيطعمهم ويتكرم عليهم بما زاد على حاجته دائما مع الدعاء والشكر على الحال.

لم ينس الناس في مناطق أخرى ما ذاع من صيته وقصته مع الشاعر الأبله المتجول بين القرى، الطالب للصدقات، والمتغزل بالنساء. كم من امرأة تتصدق عليه لمجرد سماع بعض أبيات شعرية تدغدغ بها خيالها وأنسها في وجودها...

صادف الأمر أن شيخنا كان نازلا إلى الساقية ومنبع العين، والشاعر واقف ينشد أبياته المألوفة على جماعة نسوة في الطريق يرجو تبركهن عليه بما استطعن. هرْوَلْنَ لرؤية الشيخ الآتي، وبقي الشاعر المتهور مبتسما للفقيه مكملا ما بدأه من أشعار أمام الفقيه، عسى أن تعجبه الأبيات ويتصدق عليه هو الآخر.

أَسمع الشيخَ ثلاثة ابيات، مبتغيا المزيد من إنشاده، قبل أن يوقفه الشيخ.

قال الشاعر:

ليت الهوى أسعد الفؤادَ امتطى الجوادَ لاحق الأبعاد

صاح الشوق نسيما هائجا اخترق السياج سكن الأسعادَ

ما لي لا أقتحم الخيامـــا أقتحم حلم الحبيب أشارك الوسادَ

ابتسم الشيخ و أوقفه عن المتابعة وطلب منه أن يأتي معه إلى القرب من مقامه. وافق الشاعر الأبله، واستفاد من وجبة طعام ورداء ودعاء الفقيه له واهتمامه به. لكن شرط الفقيه في تكرمه عليه هو أن يحفظ أبياتا شعرية من

نظم الفقيه ويرددها في كل حين. شِعره المهووس به سيداويه من مجاراة النساء بأبياته التي قد تجر عليه مشاكل بدل رزقٍ وكسوة. أنشد له الشيخ هذه الأبيات، فحفظها عن ظهر قلب، وأصبح نشيده بها في كل مكان حل به. ميزته أمانته في روايتها. يفتتح دائماقوله:

"اسمعوا ما قاله سيدنا الفقيه العالم الكريم والشيخ الجليل وتبركوا بهذه الأبيات في كل رجاء لكم عند خالقكم":

يا رب أنا العبد المذنب يا إلهي إليك أنا تائب

أنت المسؤول و أنا السائل دعائي لك وعدلك صائب

ذنوبي كثيرة مكشوفة حسابي عندك حب ذاهب

قلبي مليء بعشقك روحي خلقك واهب

كل ذرة في الكون لك تسجد كل خلية حية لك راهب

اسمك الحي القيوم إله معبود لك الخلق طالب

أنا من ضل الطريق تائها كل ما أبدعته يسبح يا غالب

عقابك عدل وعفوك رحمة أنت الحق الرحيم أنت النائب

عفوا إذا خططت بالقلم عذ را إذا نهلت من كلامك الغائب

بلطفك وعفوك رحمتك وَسِ عت كل الخلائق ما أنت محاسب

على كل أنت الرحمن قادر على كل أنت مطهر العوائب

وجودك كل ونحن من كلك جلالك أكوان خلق عجائب

فؤادي مليء سعادة كما تراها ظاهرة سعيدٌ بك راغب

كان دور الشاعر مع هذا الإنشاد الجديد كبيرا في شهرة القرية وشيخها ومجيء الناس إليها.

القدر

في صباح يوم مشمس، خرج الصبي مع أقرانه، و قد بدأ في النمو والكبر والعنفوان. قصدوا النهر الكبير الذي يمر غير بعيد بحوالي الساعة ونصف مشيا على الأقدام.

عاد الأصحاب والأقران ولم يعد الصبي ابن السيد الشيخ. هكذا كانوا يلقبونه. ذهب جمع من الرجال رفقة الشيخ السيد إلى مكان سباحته مع أصحابه وظلوا خلال ما تبقى من اليوم يبحثون عنه حتى وجدوه مرتطما ببعد أميال بصخرة جانبية تتفرع عنها شجرة دفلى كبيرة. شفتاه ضاغطتان على حرف (باء) كأنه نداء أبوة (أبي)، (بّا)، عيناه مغمضتان...

ظلت تلك الباء الصامتة في الضغط على الشفتين ملازمة للشيخ خلال حياته كأنها ناطقة صمتا: (بني)، (ابني).

عاد الشيخ حاملا ابنه بين يديه، مغطيا إياه بعمامته البيضاء. ساد جو حزن تلك الليلة والصباح، واجتمع الكل لتشييع الجنازة متأثرين تأثر الشيخ، السيد الشيخ، وتأثر النساء و الأطفال. لم يروا السيد يذرف الدموع من قبل، وهو مبتسم، شاكر الله على قضائه وقدره، مُحب ما أحبه

الله ومن أراده برفقته. كان هو الذي يواسي الناس ويصبرهم بأدعيته وآياته القرآنية.

استأذن في الخلوة للصلاة. لثلاثة أيام لا ينام إلا قليلا، ولا يأكل إلا قليلا. في الليلة الثالثة جمع ستة من رجال المنطقة وهو يعلم قربهم من الساكنة ومن قلبه. استأذنهم واستسمحهم في مغادرة المنطقة والترحال في بلاد الله التي جعلها لعباده. أراد له الله أن يبحث عن آلاء جديدة وأقوام جديدة. تفهم الجمع ظروف الشيخ السيد النفسية والروحية. وفَّروا له أفضل ما عندهم، دابة يمتطيها ودابة تحمل كل ما يحتاجه ويسافر به. بعد صلاة الفجر، والتي أداها إماما للجماعة المأمومة، ودّعهم قبل بزوغ الشمس مرددا من الذكر الحكيم (كما بدأنا أول خلق نعيده)، (كما بدأنا أول خلق نعيده)... لا إله إلا الله محمد رسول الله... لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أين السيد؟ لقد رحل. وهذا القبر؟ هو لابن السيد. بقيت الذكرى والزيارة والترحم والتذكر للحي والميت مع هذا القبر. فكلما أراد فرد، رجلا كان أو امرأة، أو طفلا، تحقيق صفاء روحي من المجتمع وفتن الدنيا، جاء مترحما على صاحب القبر داعيا مع الشيخ السيد المسافر.

أين السيد؟ لقد رحل. و هذا القبر هو لابن السيد. هكذا تحولت المنطقة والقرية إلى تسميتها المألوفة اليوم *(قرية ابن السيد)*.

هذه قصة قريتنا، تختلف عن باقي المناطق في كونها لم تنسب نفسها لضريح ولا لشريف. فقط في اقتدائها بما تربى عليه سكانها على يد هذا الشيخ السيد من حب للدين والخلق النبيل والعبادة والقرآن. فكان أن بقي التشجيع على استقطاب من يُعلِّم ويفقه في الدين ويؤم الناس في المسجد... ولكنْ، لا نسيان لذكرى نور المكان المنير الفقيه السيد في هذه القرية:

قرية (ابن السيد).

العودة

في صباح باكر، خرج الشاعر هائما مع ضفاف الوادي، وجبته الصباحية في استقبال أشعة الشمس الأولى، وسماع خرير المياه وأصوات خلق الله المنتشر بين الأغصان والشعاب . في كل تفاعل حي مع المحيط تسمع تعليقه "سبحان الله". لم يعد الشاعر متعلقا بأبياته الغزلية، لكن ما يزال اللقب يتبعه. لم يعد المتجول بين الدور والمداشر . لم يعد المشدوه بابتسامات النساء . فقد استقر بقرية (ابن السيد)، اتخذ عملا يوميا مع فلاحيها. تزوج إحدى أراملها، اعتكف لمرات بمسجد القرية التي احتضنته وانتسب إليها. باشر العناية بقبر ابن السيد والحفاظ على خروبته الموفرة لظلاله. هي شجرة كثيفة الأغصان، مختلجة الفروع. أوراقها تزداد كل مرة يناعة وخضورة، خصوصا وأنها تنهل من جنبات ومن جوف الأرض التي تنغرس فيها جذورها... إذا رفع الإنسان بصره في أعلاها وجدها كأنها قبة نازلة بسمكها المعهود، الذي ينزل إلى أدنى دنوه يقارب ملامسة الأرض كأنه عشق للالتحام بالأم الكبرى الأرض التي وهبتها المقام والحياة والإيواء. بالكاد تطاوع الشجرة والأرض من يلج دائرتهما الظليلة في وقوفه، فتجده مشدودا إلى رائحة الخروب وورقه وعوده. تكاد تسحره أوقات الإثمار، مغلفا بصلابة يابسة من تحت، وشبكة نبات وأوراق من فوق، ولباس ظل دافئ معتدل في الشتاء كما في الصيف. من أين أتى لهذه

الشجرة المباركة هذا الظل الوفير، يكاد لا تخترقه أشعة شمس إلا حين اقتراب الغروب، فتجدها باردة ورحيمة، كاسية لجذع الشجرة بلون قرمزي شفاف يراقص الأخضر فيحوله إلى لون بني يجعل الشجرة كعروس مهيئة بزينتها لاستقبال الغروب وليل المساء، لاستقبال سهرها مع ضياء القمر و النجوم، أو لاحتضان رعيتها من قساوة البرد أيام الشتاء. استطاعت الشجرة أن توفر أوكارا لأنواع عديدة من الطيور وصغار الحيوانات الزاحفة، كما استطاعت أن توفر إقامة خالدة للقبر الذي عانق مملكتها وهدأ في رحابها. ساعدتها نباتات ملتوية حولها في صعود احتفالي وجمالي كأنه حلول وعناق يسري بين الفروع و الأغصان، حتى إنك تتساءل من يحتمي بالآخر؟ هل هذه (اللواية) كما يناديها أصحاب القرية أم الشجرة؟ شجرة مكيفة للهواء، معمرة في الزمن.

يكبر النشء ويشيب، ويتحول من سواد شعر إلى أبيضه، ومن استقامة قامة إلى انحناء، وهذه الشجرة صامدةٌ، ظلُّها في ازدياد، وخضورتُها في نضارة متجددة... هل تكون شجرة الخلد؟ على الأقل خلال مَعْبَر حياة فرد ما، هي كذلك، ما دامت قد استقبلت ولادته وودعت نهايته ومماته... وهذا القبر تماسكت جنباته فأصبح مُشكِّلًا إحدى مكوناتها وأثاثها... كأنه حي بحياتها لا يموت، له نبض وحركة.

كان الشاعر مستقبِل الزائرين، محدثا بالأخبار عن شخصية الشيخ السيد، تاليا لأشعاره و أذكاره: يا رب يا رب... تحولت نظرة الغزل للنساء إلى ابتسامة إيمانية صادقة في العبارة التي ينطق بها بعد كل حديث: سبحان الله، سبحان الله، يا رب، يا رب....

قامته ليست بالقصيرة ولا الطويلة، عيناه متسديرتان صغيرتان نسبيا، تجدهما دائمتي التمعن في النظر، إلى درجة تجعلك تفتحصهما، أَهُما تشتغلان أم ثابتتان... كتفان واقفان مع حركة الجسم، خفيفان في الاستدارة... هي مواصفات جعلت الاطمئنان لمقدَمه في أي طريق التقيته ولو أنك لم تتعرف عليه من قبل. ربما هذا ما يغبطه عليه الناس منذ بداية تواجده بالقرية ومنذ استقراره بها... كانت إلقاءاته لشعره مقبولة رغم استفزازها لمشاعر وأخلاق داخل بنية القبيلة. ربما دائرة بوحه بأبياته ناسبت لحظات رغبة المستمعين للخروج عن المألوف.

على العموم فإن سكان المناطق الجبلية يعشقون الشعر هنا إلى درجة أنهم يمتلكون من ينظم لهم الأشعار في المناسبات وفي المعارضات بين القبائل. كما أن النساء يسجلن ذاكرة قوية للثقافة المحلية عبر الحكايات المروية للصغار وعبر التغني بالأشعار على طريقة تماويت وغيرها... فتماويت ارتجال غنائي منفرد يؤديه مغن ذو صوت قوي وحادّ.

في ذلك الصباح، وبعد انتهائه من تغذيته الحسية والروحية، وجد نفسه قريبا من الحقل الذي سيشتغل فيه، وسيعمل على سقيه. لفت نظره جمع يستريح بجانب دوابه المحملة بالأمتعة. رأى عمامة بيضاء دالة على سن صاحبها الذي استدار، فبدت لحيته البيضاء كذلك مسترخية على صدره. و علامة سبحة خضراء، قلادة كل عاشق للحب الإلهي، مرصعة بأحجار مرمرية بيضاء تفرق بين مقامات التسبيح و الحمد... ذاكرةُ الشاعر استجمعت مع رؤيتها ما خالتْه من هذه السبحة التي ما تزال معلقة على صدر الشيخ الكبير. فالشاعر يعلم ما علّمه الفقيه السيد من أوراد وأذكار وطريقة استعمال للسبحة وكيفية ترتيبها والتمييز بين ألوانها... يتذكر الوِرد الفردي الذي يقوم به مائة مرة (أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم). و هو في تمعنه ردد الاستغفار بطريقة غير واعية كأنه يريد الاستعانة به على خائنة الأعين ونسبية الحواس التي قد تخدع صاحبها بعض الأحيان، فيتخيل الوهم حقيقة، و هو الذي أصبح بشخصية جديدة تنال المصداقية في قولها و كلمتها و التزامها و عملها... لا ينسى قوله تعالى (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)... و هو لا يريد أن يكون ضحية الخطأ فتنطبق عليه الآية.

ماذا لو قال إنه شيخه المحبوب و أخطأ في تقديره؟ كأن قوم القرية واقفون أمام ذهنه ينتظرون حسمه لتقريرِ ما رأى وإصداره شهادة ما رأى، كأنه صوت أو هي أصوات أهل القرية بنسائها ورجالها، وبكل من يعرف الشيخ

السيد ينتظرون بسؤالهم الهامس في ذهنه: من هذا؟ ماذا رأيت؟ أسرِعْ في الجواب! نتعطش للمعرفة قبلك!

هيا أنت دليلنا في هذا الصباح وصاحب خبرنا. كأنه من سيرى هلال عيد الفطر والناس في انتظارٍ، أيصومون أم يفطرون؟

ركز بصره. تحول نبض قلبه، تضاعفت لمحات ابتسامته على محيا وجهه. هرول، قاصدا بأدب الجماعة المستريحة.

ناداه الشيخ الكبير:

– السلام على حبيبنا و صديقنا.

. من؟ سيدي الشيخ الفاضل.

ارتمى على الشيخ بالعناق والترحاب، قبل يديه، سقط على رجليه... بكى كاليتيم الذي عاود لقاء أبيه المفقود. تهيأ للسلام على الجماعة.

. الحاج العربي. زوجته "الغالية". هذه زوجتي "فاطمة"، وهذا ابني ذو الثلاث سنوات.

. مبروك يا شيخنا الأفضل، الحمد لله سيد ابن السيد، مبارك آمين، سبحان الله، سبحان الله... يا رب، يا رب.

. لم أرد الدخول قبل الاستئذان واستيقاظ الجميع.

. ألا تعلم أنها سميت باسمك وبركتك، وأن خيرها تضاعف بذكرك؟

. الفضل لله رب العالمين. سمعت بكل هذا، ولم أرغب في قطع الصلة بها، فهم أهلي وأحبابي في الله. لذلك عدت لهم بصهري وابني وكُلّ ما أملك، لأكون بينهم، وأستريح في ترابهم، و أجعل ابني المصطفى واحدا منهم.

استأذن الشيخ. خطا بضعة أمتار. مد سجادته. ذهب في تواصل روحي عارجا ببصره إلى السماء، وفي أعماق الأرض والقلب والروح. كلما كان التفكير في شيء مستقبلي أوْ شكّ في تقصير عملي أو تعبدي لجأ الشيخ للصلاة والدعاء. هكذا رياضته ومعادلته.

صلى ركعات، شكر وتبرك، ذهب في وِرْده الفردي بسبحته بالاستغفار مائة مرة. صلى على النبي المصطفى مائة مرة (اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطك المستقيم). أضاف توحيد الإله تثبيتا للإيمان مع الحياة الجديدة والعودة الجديدة، حتى يقوي اعتقاده بإلهه ورجاءه فيه (لا إله إلا الله) مائة مرة.

عاد الشاعر للقرية ذلك الصباح. الكل رآه وتعجب لعودته الباكرة في غير وقتها المعتاد. زف الخبر الجديد بعودة الشيخ من جديد. لم يصدق البعض ما سمع، تريث قبل التأكد، فربما الشاعر أراد العودة لمفاجآته أيام كان هائما، جائلا في البلاد.

بعض شباب القرية اتخذ اتجاه مدخل القرية، بل منهم من استعمل دابته مسرعا إلى مكان توقف ركب الشيخ السيد. تضاعف تأكيد الخبر. بعد ثلاث ساعات، ظهر موكب صغير، تتقدمه لحية وعمامة بيضاوان، وقلادة كبيرة خضراء. تلا الشاعر قوله تعالى في سورة آل عمران:

(فتقبلها ربها بقبول حسن و أنبتها نباتا حسنا، وكفلها زكرياء كلما دخل عليها زكرياء المحراب وجد عندها رزقا. قال يا مريم أنى لك هذا، قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. هنالك دعا زكرياء ربه، قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء. فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيئا من الصالحين. قال ربي أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر. قال كذلك الله يفعل ما يشاء. قال ربي اجعل لي آية. قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا، واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والابكار).

استدار الجمع اتجاه الشاعر متسائلا:

. ماذا تقصد بما تلوته من قرآن؟

. لقد عاد الشيخ بابن صغير له، اسمه المصطفى. سبحان الله والحمد لله، سبحان الله والحمد.

تضاعف الذكر والدعاء كأنه غيث مطري جاءت به ظلال وسحب موكب الشيخ السيد.

الحياة: تجارة وعبادة وجهاد

لقد اتسع فضاء الدار الكبيرة مع توالي الأيام. فكما كبر مجال المسجد المحاذي لجدارها اتسعت الدار ببوظائفه. هكذا أصبح المدخل بهوا واسعا مفتوحا على السماء كما على أبواب غرف بأقواس نصف مستديرة. ثلاثة أبواب متوسطة الكبر، وباب متوسط الصغر يؤدي إلى عالم الأسر المنتمية للدار الكبيرة لأمغار شيخ القبيلة وقرابته. تشكل أجنحة أخرى منازل ملحقة إضافية، يقيم بإحداها الشيخ السيد وعائلته التي أتت معه في عودته الجديدة إلى القرية.

كان الجو نسيما عليلا، والسماء متلألئة بنجوم تراقص سكونها وعتمتها الليلية. فرش الحصير على امتداد زاويتي الغرفتين المتجاورتين من جهة الشمال، حتى تبقى الباب المؤدية إلى أجنحة الدار الخاصة بالأسرة و المطبخ مخصصة لدخول وخروج المكلف بخدمة الجمع في جلسته هذه الليلة.

كما جعلت بعض الزرابي والمسانيد لتساعد على الاسترخاء النسبي في الجلوس.

بعد مأدبة العشاء، جلس الشيخ وسط جمع القرية، داخل الدار الكبيرة. خمسة وعشرون من رجال القرية، جلهم يمثلون أسرها وعائلاتها، بأولادها وأحفادها ونسائها. خاطبهم في هدوء وروية كلام ورزانة سلام:

(بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى آله وصحبه اجمعين، ورحم الله أولياءنا الصالحين ومجاهدينا في كل زمان ومكان. اللهم ارحم والدينا وارحم موتانا وارحم من علمنا، وارحم برحمتك الكاملة الكريمة جميع المسلمين والمسلمات، برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.)

يتذكرون الوِرد الجماعي الذي كانوا يرددونه مع الفقيه السيد، وها هم يرددونه من جديد، كأنه روح حياة جماعية قد فقدت وعادت من جديد منبعثة. ربما كان ينقصها صوت الشيخ السيد حتى تسلم وتصبح صحيحة. فاستغفروا الله بقولهم (استغفر الله العظيم) مائة مرة، ورددوا خمسين مرة *(اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.)*. و كلمة (لا إله إلا الله) مائة مرة كذلك. وباثنتي عشر مرة رددوا جوهرة الكمال.

جَوْهَرَةُ الكَمَالِ

اللَّهمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى عَيْنِ الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَةِ وَاليَاقُوتَةِ المُتَحَقِّقَةِ الحَائِطَةِ بِمَرْكَزِ الفُهُومِ والمَعَانِي، وَنُورِ الأَكْوَانِ المُتَكَوِّنَةِ الآدَمِي صاحِبِ الحَقِّ الرَّبَّانِي، البَرْقِ الأَسْطَعِ بِمُزُونِ الأَرْبَاحِ المَالِئَةِ لِكُلِّ مُتَعَرِّضٍ مِنَ البُحُورِ وَالأَوَانِي، وَنُورِكَ اللاَّمِعِ الذِي مَلأْتَ بِهِ كَوْنَكَ الحَائِطِ بِأَمْكِنَةِ المَكَانِي، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى عَيْنِ الحَقِّ التِي تَتَجَلَّى مِنْهَا عُرُوشُ الحَقَائِقِ. عَيْنِ المَعَارِفِ الأَقْوَمِ صِرَاطِكَ التَّامِّ الأَسْقَمِ. اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى طَلْعَةِ الحَقِّ بَالحَقِّ الكَنْزِ الأَعْظَمِ. إِفَاضَتِكَ مِنْكَ إِلَيْكَ إِحَاطَةِ النُّورِ المُطَلْسَمِ. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ، صَلاَةً تُعَرِّفُنَا بِهَا إِيَّاهُ.

ذهب الكل في خشوع الدعاء، وفي هدوء تام استعدت فيه القلوب لسفر روحي جديد، اشتاقت مع شيخها الجليل له. وفعلا طال الدعاء، وصفَت معه القلوب، واغرورقت بعض العيون، وتنهدت وتنفست الصعداء بعض الصدور.

. جئتكم أحبائي بعد غياب ست سنوات، فارقتكم بالجسد لكن بالقلب دعائي دائما حاضر معكم. فقدت إبنا، لكنكم أنتم بديله أبنائي وإخواني، أهلي أهل الصفاء في القلوب والكرم والإيثار في الكروب. جمعتم شيم الأنبياء والأولياء الصالحين. نزاعاتكم تفرح الملائكة لبساطتها وسهولة تذويبها وحلها.

. هذه المرة جئتكم بأهل جدد، الحاج العربي الجالس أمامي، وأهله، وزوجتي الصالحة وما رزقني الله به من ابن بار، رغم كبر سني. لم أرد لابني وأهلي من أهل سواكم، أنتم أهل الأمان والأمن والخير والصفاء. قد تستغربون مِن تزوجي رغم كبري ورغم عرضكم للموضوع فيما سبق. لكن اعلموا أن قضاء الله وقدره يتحكم فيما يريد، سبحانه لا إله إلا هو العليم الحكيم. التهيؤ لشيءٍ ولوقوعِه مثلَ البذرة التي تكون مجتمعة حتى يأتي فصلها، زمانها، ريحها، لقاحها، شمسها وقمرها، ليلها ونهارها، ترابها وهواؤها. فجأة تنبلج شعيرات، تخترق الأتربة، تخرج لنور الأشعة، تزهر وتثمر، تعانق الكون والخلق والنعمة الإلهية في الحياة. هذه البذرة ساكنة في كل واحد فينا ومنا.

أثنى الجميع على ما سمع، حيى وبارك ودعا بالخير ووطد الأخوة والمحبة. لم يحتاجوا إلى تفاصيل أخرى. عفة الحياة الشخصية أغناها هذا التشبيه الرائع البليغ الذي بدأ به الشيخ عالما وأديبا وليس مجرد فقيه متعبد.

. هي الحياة تعيش فينا وفي الطبيعة والخلق بقوانين واحدة.

. الحاج العربي، صاحب تجارة وخبرة. له أسواق وعلاقات. تجارته مطلوبة في كل مكان، وبركة ربه حاضرة معه. لكنه أراد مرافقتي والعيش بجواركم. قافلته التجارية تمر على بعد أميال من قريتكم ثلاث مرات في السنة على الأقل. و سيصبح لها سوق جديد هو قريتكم. وفاؤكم وصدقكم جعله

يفكر في شبابكم لجعلهم أمناء على رزقه وأمواله. غالبيتكم يجيدون الزراعة والرعي. عمل أولاد آدم وبركة التاريخ منذ القدم. أما زوجته الصالحة وزوجتي، فهما أختيان، حرفتهما نسج الصوف وأثوابه وزرابيه. صناعتهما لرسوم وألوان، تجعل الكل يطلب ما سينسج السنة الموالية بدل الآنية. قريتكم قرية خير وبركة، غنمكم صوفه حرير، لن يبقى مجرد حشو للمسانيد والأسرة. واعلموا أن لا ربح مادي مرتجى، الربح هو قلوبكم والسعادة هي العيش بينكم، يا أهل الكرم والصفاء. هذا مجيئي عندكم، أردت لروحي أن تستريح بجبالكم ، أن تجعلوا لي قبرا مستورا يفرح لسعادتكم وأعراسكم وإنجابكم وإنتاجكم. تترحمون علي بعد موتي بتقواكم وعبادتكم.

. أطال الله عمرك يا شيخنا الفاضل.علق صاحب الدار الكبيرة. فضلك عرفت به قريتنا رواجا وهناء، زوارا وتجارة، قبر ابن السيد أصبح يؤمه الناس للتبرك به. حتى الشاعر الذي كنا نتوعده كلما فتح فاه، أصبح ابننا وأبرنا وصهرا لنا، وعابدا صالحا هو ابنك كذلك الذي لم تلده من صلبك يا شيخنا الفاضل.

. أطال الله عمرك وعمر الحاضرين و أهل القرية وكل المسلمين والصالحين. بارك الله فيكم أجمعين. ولكن اعلموا أنني لم أرد تقديسا لقبر ولا طلب بركة منه، ما تركته فيكم تربية صالحة، وأخلاقا فاضلة في القلوب. هي بذور لا يراها أحد ولكنها تنتج وتثمر بمحياكم ومعاملاتكم. وإذا مت

بينكم لا أريد قبة ولا تقديسا، فالمطلوب الله تعالى، والشافي الله، والرازق الله، ولا إله إلا الله محمد رسول الله.

. سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده. ردد الجمع مع الشيخ التسبيح لعشرات المرات. حتى اختتم بالحمد لله رب العالمين.

. يقول تعالى في كتابه العزيز في سورة البقرة: (يسألونك ماذا ينفقون؟ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين و الاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم. كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا و هو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، و الله يعلم و أنتم لا تعلمون**) صدق الله العظيم.**

ويقول سبحانه في سورة الحج (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم و افعلوا الخير لعلكم تفلحون. و جاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم و ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، و في هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم و تكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة و آتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى و نعم النصير.).

ويقول عز من قائل في سورة البقرة (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا).

. تسمعون ما صارت إليه البلاد من غزو للفرنسيس بلباس جلدي على الجياد. لقد اخترق الكفار بلاد المسلمين. والله تعالى يريد لكلمته أن تبقى دائمة، والكفار يريدون إطفاءها ومحاربتها. إن الكفار يخترقون ويزحفون

ببطء في البلاد. يستقرون بالمراكز ويستولون على الأراضي ويستغلون الخيرات التي أنعم بها الله على عباده المسلمين.

. يا إخوتي وأحبائي، لم أرد بكلامي هذا تخويفا ولا ترهيبا، فقط تنبيها لتجعلوا حسبانا لما سيأتي في السنين. أمانة الحفاظ على الدين والأمة الإسلامية ملقاة على عاتق كل واحد منا. كنت ذاهبا في طريقي إلى الآخرة، عازفا عن الدنيا. ها أنا أعود للدنيا بالزواج والإنجاب، وكذلك أعود بالجهاد. كنت في جهاد النفس والبدن، ها أنا الآن أعود لجهاد الإيمان والدين والدفاع عن بلاد المسلمين. قال الحبيب المصطفى عليه افضل الصلاة والسلام.

ردد الجمع: صلى الله عليه وسلم.

. قال عليه السلام: ***من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، و من لم يستطع فبقلبه، و ذلك أضعف الايمان .***

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم. سنطلب العمل و دالتجارة، سنطلب العبادة، سنطلب ذكر الله ولطفه والتقرب اليه وطلب مرضاته. يقول تعالى في سورة القصص (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا و أحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين**).**

. سنطلب الجهاد إن كنا قادرين عليه بكل ما نملك.

لم يكن زهد الشيخ مرتبطا بالمكان والاعتكاف والعزوف عن الناس، بل هو زهد ارتبط أكثر بالترحال والتجوال في بلاد الله وأرضه الواسعة. كان التسبيح والحمد يتجدد مع كل ما يراه جديدا وبديلا. كان التسليم لصاحب الكمال والجلال والقدرة المطلقة يتجدد ويتقوى مع كل أفق طريق جديد، وكل شروق وغروب لشمس تحمل غدا بنور جديد. كان زهد الشيخ تربية أرادها لخلق الله، ولمسة يتركها عند كل جماعة في قبيلة أو قرية. هي بذوره الإيمانية يغرسها ويرعاها، ويعود لسقيها والعناية بها. هكذا وصل صيت الشيخ آفاقا واسعة. مناظرات مع أهل العرفان والزهد وطلب القرب من الله في بعض زوايا البلاد. كان شيوخ الزوايا يقيمون مؤسسات وبنايات، وهو يؤمن برسالة لكل صغير وكبير، كل رجل و امرأة، كل أسرة وعشيرة. لم يرد أن يجعل علمه و طريقه في القرب من الله وتهذيب النفس وتطهير القلب، لم يرد أن يجعلها دائرة مغلقة لا يسلكها إلا المريد الطائع الملتزم، القاهر لبدنه ونفسه. لا. لقد فكر في رحمة الله (*ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء*). من ينقذ هذه الأرواح المنسية في قمم الجبال، وفي شعاب الوديان؟ من يخط طريق الأمل والنجاة للغارقين في اليأس أو في ملذات الحياة؟ من يشفي هذه القلوب المكوية بنار الدنيا قبل الآخرة في المدن والقرى؟ من يقرب المسافة بين العبد وخالقه؟ لا وساطة في الإسلام، ولكن هداية وتنوير مسلك التقرب من الله تعالى، من حبه ونيل رضاه. كم

من حاجز بين الإنسان وقلبه. فمن هو الطبيب؟ من هو مزيل الحواجز والكرب والقنوط وأمراض النفس والقلب؟

لا إله إلا الله، هو القادر على ما يشاء. هكذا كان ينهي كلامه في كل مناظرة أو محاورة. كان يبارك الطريقة، ويرشد الملة، لكنه كذلك يتخذ مسلكه الخاص بين عباد الله داخل المجتمع. يتذكر ولي الله الشيخ أبي موسى وكيف كان يعيش بين من يعتبرون مدنسين في المجتمع . فقيرا، في فندق بين عامة الناس. كيف يطلب الغيث بفقرائها ومنسي نسائها وأطفالها دون أعيانها وقيادها. فالله يسمع صوت الضعفاء والفقراء والمظلومين. يبتسم للذكرى، يوافق الحكي، يتابع السيرة بنفس النهج في مد خيوط الأمل والقيمة والرعاية للضعيف قبل القوي، والفقير قبل الغني، والصغير قبل الكبير.

للغد، اعتكف الشيخ بالمسجد لثلاثة أيام. بقي الضيوف مقيمين بالدار الكبيرة.بعد خروجه من الاعتكاف، طلب بمداد، وكتب بخط يده كتبا راسل بها بعضا من شيوخ الزوايا الصوفية القريبين من المنطقة، كما راسل بعضا من شيوخ القبائل وأعيانها بمختلف المناطق التي سبق له أن ارتحل وحلّ بها وأقام بين ظهرانيها.

تعليم القراءة والكتابة، تحفيظ القرآن، تربية وتهذيب، قدوة من بعيد. هذه مدرسة الشيخ الكبيرة الممتدة عبر كل المناطق التي زارها. لكن، هذه المرة،

عبّر عن نية الاستقرار، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. كبر السن، والشعور بعدم القدرة على الترحال والتجوال، سيكون القلم هو السفير، والمرسول والمبلغ الحكيم. فالكلمة لها وقعها وفعلها في القلوب وفي السلوك:

(بسم الله الرحمن الرحيم، اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم**)**.**صدق الله العظيم.**

بسم الله الرحمن الرحيم: أولياء الله الصالحين، ما على الرسول إلا البلاغ المبين. بلاد المسلمين في خطر غزو مبين، وطرد الكافر أصبح واجبا على كل مسلم أمين.

يقول الخالق سبحانه وتعالى: (إنما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون).

وقال الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام: ألا أخبركم بخير الناس؟ رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله.

. من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة.

هذا بلاغ للمؤمنين لحماية الأمة من الكافرين والغزو اللعين. وشهد الله على ذلك، وكنا له راجين في تقوية الهمم ونهوض بالعزم ومحاربة الظلم. آمين يا رب العالمين. "

هكذا تحول المتعبد الناسك إلى رافع لراية الجهاد. بعث صهره جنوبا، وبعث الشاعر شمالا. كل واحد منهما له دراية بالطريق. الأول في التجارة والأسواق، والثاني بالشعر داخل هذه الأسواق. التقى الزاهد والشاعر والتاجر. مهمة مشتركة: تجنيد الهمم لمحاربة غزو المستعمر المهدد للدين والبلاد.

سأله رجال القرية عن طريقة مساعدتهم وقيامهم بالمهمة، كان دائما يجيب مع ابتسامة مطمئنة للقلوب والأفئدة: عزم ونية، عزم ونية. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، يقول تعالى: (و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، و ما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم).

كانت المنطقة مناسبة للمسالك الجبلية الآمنة. رغم إطلالتها على منحدرات وادي درعة البعيدة، إلا أنها كانت تشق فجاجا وأودية طبيعية، يسلكها المسافرون كما الرعاة في ترحالهم بين السفح والجبل، بحثا عن المراعي وتأقلما مع تحولات الفصول. وحيث لم يكن سكان القرية منعدمي التواصل مع العالم الخارجي، فقد كانت لهم علاقات تجارية مع بلاد سوس ومراكش رغم بعدها، ودرعة كذلك. هكذا لم تخلُ روايات وحكايات الكبار رجالا ونساء من تخزين أحداث وعلاقات تاريخية مع المنطقة ومع التاريخ ومحطاته المهمة.

ففي الجنوب، ما تزال أصداء المقاومة التي خاضها أحمد الهيبة ابن ماء العينين. الذي بايعه أهل سوس على الجهاد، و الذي تستمر ذكرى معركته مع الكولونيل الفرنسي مانجان حاضرة في الأذهان. رغم تضارب الروايات والتأويلات لها من طرف الساكنة التي لم تنخرط بعد في عمل مقاومة مباشر، نظرا لبعد جغرافي وعدم تبلور علاقات تاريخية كبيرة مع قادة المقاومة وحركاتها حتى مجيء الشيخ السيد إلى القرية. سيكون للقرية تعرف بَعدَه على مقاومة (مربيه ربه) وهو أخ المقاوم (الهيبة ماء العينين). كانت رحلة صهر الشيخ جنوبا في تواصل مع مقاومة (مربيه ربه) إذا. وكان النسيج الرابط هو قضية محاربة المستعمر ومكانة الشيخ السيد في العلاقة مع عائلة ماء العينين الكبيرة والممتدة قبل عقود من الزمن كذلك. كان لوقع المعارك وصداها أثر على عقول الناس. فمرحلة العشرينيات من القرن العشرين الميلادي كانت صاخبة كذلك. كذا ملحمة أنوال وصراع الخطابي مع الإسبان، زادت ثقة تاريخية في قدرة الفرد والإنسان المغربي على تصور مواجهة التحدي مع المستعمر المخيف بعتاده وتخطيطاته. والأشعار قد تغنت بتماويت مخلدة لبطولات موحى وْسعيد القصيبة، وموحا وْحمو الزياني، ومعركة الهري الشهيرة التي كانت سنة **1914**م... تسافر الحكايات عبر قمم الأطلس لتنصب شهادة البطولة والنصر والفخر لهؤلاء المقاومين الكبار، ولإيمانهم بدينهم وقضيتهم في محاربة المستعمر. عبر ربوع الأطلس المتوسط، مرورا إلى الأطلس الكبير أو جبل الحياة (جبل درن) في

تسميته الأصلية عند ساكنيه، ثم الأطلس الصغير، كان الرعاة الرحل سفراءَ القبائل. وكذلك التجار المتجولون بين المدن المركزية والمناطق النائية، خصوصا منها الجبلية.

{في الأطلس الصغير والكبير:لعب القايد التهامي الكلاوي دورا هاما في إخضاع القبائل الأطلسية و الجنوبية، واحتلت فرنسا منذ سنة1920 مناطق تافيلالت ودرعة وجبل صاغرو، و أخضعت قبائل آيت عطا في دادس وتودغة، وقضت في درعة على مقاومة بلقاسم النكادي في يناير 1934. وفي الأطلس الكبير كانت المواجهة بين القوات الفرنسية وقبائل آيت عطا بقيادة المقاوم عسو أوبسلام في معركة بوغافر، وستنتهي المقاومة في25 مارس1933، حيث تمكنت فرنسا سنة1934 من احتلال كل التراب المغربي بالقضاء على المقاومة المسلحة}.

قبل أن يسجل التاريخ هذه الشهادات، كانت حياة الناس مقاومة ونفسها جهاد لا تحيى إلا به إذاً...

بعد شهر و نصف تقريبا، عاد المرسولان من بلاد سوس ومراكش والساقية الحمراء... هي بذرة الجهاد قد زرعها الشيخ في البلاد. متى ستينع و تثمر؟ كان يطرح عليه مثل هذا السؤال أو ما معناه، و كان جوابه آيات من الذكر الحكيم: (و ما تشاؤون إلا أن يشاء الله). (لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

مع حركة الاستعداد للجهاد، نشطت حركة حياة جديدة، حيوية عمل جديد، فتح ورش النساء في جمع الصوف ونسجه، في تعلم طريقة الزرابي الجديدة والأغطية والألبسة... أصبح الاهتمام بجز الصوف وغسله وإعداده. حتى مراحل إنتاجه ثوبا أو غطاء أو بساطا... الغريب أنه في ظرف أقل من سنة أصبح لكل بيت منتوج من هذا الورش الجديد يحقق الكفاية ويلبي الحاجة ويدعو لإضافات احتياطية جديدة. أصبح لهذا المنتوج حمولة ثقافية جهادية، كأنه طقس وواجب في العمل، أو الاقتناء والشراء.

كان الشيخ يستعمل مستودعا خاصا لبعض ما تنتجه النساء. لا يباع ولا يشترى: هذا لأجل الجهاد.

خلال هذه السنة حطت قافلتان تجاريتان الرحال بالقرية. و لأول مرة خرج بعض شباب القرية للتجارة. عشرة شبان، تقاسموا المشاركة في رحلة حياة جديدة مع القافلتين التجاريتين. أحلام وآمال وتوجس من الآتي يذيبه حب الحياة والسفر والتجوال.

في صباح يوم باكر، سُمع صراخ وبكاء.مات الشيخ صباح يوم جمعة معتكفا بالمسجد قرب منزل إقامته. رحمة الله عليه. أسكنه الله فسيح جناته. يقول تعالى: (كل نفس ذائقة الموت).

كان الشاعر المرهف الإحساس هو الأكثر تجلدا وصبرا. كان صاحب نظرة للآتي وليس للفائت. كان جليس الشيخ في تحديثه وحواراته

ودروسه. ردد الآية وذكر بوصية الشيخ بعدم جعل بناية أو قبة على قبره، بجعله في مكان آمن بعيد مسافة عن القرية. وصيته بتتبع أخبار الجهاد والاستعداد للدنيا والآخرة بالتقوى.

في يوم عاشوراء، سُمع ركب خيول نازلة من المسالك الجبلية صوب القرية. رجال ملثمون، استقبلهم الشاعر بحفاوة وترحاب. بدا على عِلم بمجيئهم، على معرفة ببعضهم، فقد ناداهم بأسمائهم الشخصية... إنها حركة المقاومة التي اندلعت و بدأت وتطورت ضد المحتل الغازي بضواحي مراكش وسوس وجنوب الصحراء. كان زعيم حركة المقاومة والجهاد أحد مريدي الشيخ خلال تجواله بضع سنين سابقة. كان أحد الذين وصلتهم رسالة الشيخ في الجهاد. وما العلم إلا عمل، لا علم بدون عمل: *(من عمل بما علم، علّمه الله ما لم يعلم)*.

هكذا كانت دروس وأحاديث و توجيهات الشيخ لمريديه وأتباعه المنتشرين عبر رحلة عمره في الزهد والتصوف، وعبر الأمكنة التي وصل إليها أو زرعت فيها بذور علمه الرباني العرفاني.

رسالة مختصرة في سطورها، طويلة في مشوار تحقيقها وتنفيذها. هي مدرسة التقوى والاستقامة، مدرسة مقاومة امتدت لمحاربة الغازي... كانت آخر جيوب للمقاومة بقيت صامدة ضد المحتل، لا تنضب، لا تهدأ، لا تنتهي حتى يطرد المحتل...

أدت الجماعة صلاة الظهر، ذهبت للترحم على قبر الشيخ السيد. بعد قراءة الفاتحة والدعاء، انتظرت مجيء الشاعر بأمتعة ومؤونة. كانت زكاة، كانت تمويلا لجهاد ومقاومة... كانت أغطية وألبسة صوفية... كانت عُشُرا من كل ما تصدقت به القرية... كانت وصية الشيخ السيد المستمرة في دعم الحركة الجهادية. ما نسجته أيدي النساء، ما حُقق من أرباح في بيعه وفي تجارة صهره. ها هي البذرة تنبت من جديد أشجارا بفروع وأغصان. ها هي تلوح مع الرياح، مع ريح المقاومة الساخن الذي انطلق كعاصفة لا تتوقف. ها هي البذرة كلمة تنبت رصاصا يحارب الظلم والاحتلال. اخترقت تلك الرسالة إذا شرايين جسد الأمة وأعطت نبضا قويا لقلبها:

بسم الله الرحمن الرحيم

أولياء الله الصالحين، ما على الرسول إلا البلاغ المبين. بلاد المسلمين في خطر غزو مبين، و طرد الكافر أصبح واجبا على كل مسلم أمين.

يقول الخالق سبحانه و تعالى: **(إنما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون)**. وقال الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة و السلام: ألا أخبركم بخير الناس؟ رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله. . من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة.هذا بلاغ للمومنين لحماية الأمة من الكافرين و الغزو اللعين. و شهد الله على ذلك، وكنا له راجين في تقوية الهمم و نهوض بالعزم و محاربة الظلم.

آمين يا رب العالمين.

مرحلة المقاومة

جلس قائد الجماعة الجهادية، تناول من يد شيخ القبيلة والقرية كأس الشاي. وكأس الشاي طقوس والتزام. هرمية اجتماعية يحترمها الجميع. توضع أطباق معدات الشاي وإبريقه. تحضر النار والماء الساخن. كل هذا أمام شيخ القبيلة وكبيرها ـ أمغارها. يكون هو المعد وهو المفتتح والمسير لجلسة الحوار والنقاش. لا تفتح المواضيع إلا باستئذانه، ثم بالآخرين في مواضيعهم والوصول إلى نهاياتها في الإخبار والحلول لمشاكلها.

يتذكر الجميع قصة علي الجزار الذي ذهبوا لزيارته ومشاورته في موضوع يهم عائلته وبعض محصولها الزراعي المشترك في أرض الجموع التي حرثت تلك السنة... لما جلسوا، أُدخلت صينية الشاي، وضعت أمام أمغار، لمس الإبريق، غطاه بمنديله، لما انتهوا من الكلام، ناداهم أمغار: أسيادنا اجْمَعوا وقْفَتَكُم لننصرف.

لم يعترض أحد رغم أنهم يعلمون أن الشاي لم يسكب في الكؤوس. حين خروجهم، استنتجوا أن الشاي قد أعد في المطبخ، وهي مسألة ليست من عرف القرية أو القبيلة . بقيت درسا يذكر بطقس الصينية وكأس الشاي في حضرة رجال القبيلة، الكل يحترمه ويلتزم به.

أطباق اللوز والتمر معروضة. البداية بتناول نعم الله الكثيرة، وحمده عليها بالابتسامة لإيجابيات الحال أولا قبل التطرق إلى ما اختل منه.

هذه ثقافةُ جلسة الشاي، لحظات يومية محترمة داخل بنية كل جماعة أسرية أو عشائرية أو قبلية.

إنما جلستنا هذه انضاف إليها جمع المجاهدين الذين حلوا بالقرية وترحموا على قبر شيخها وابن شيخها... ما افتتح به شيخ القرية بكلام، مهد لقائد المجاهدين لكي يبلغ رسالته به ويحمد الله عليه. سمع الجميع من شيخ القبيلة كلامه:

. بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين. نحمد الله على هذا الجمع الكريم ولقاء المحبة الصافي وعلى نعمه التي لا تحصى وخيره الذي يغدق علينا به، وعلى ما وعدنا به من جنات النعيم ومرضاة و تزكية. مرحبا بإخواننا في الدين، في بلدتهم الطيبة وقريتهم الكريمة، وفي زيارة روح الشيخ السيد، الفاضل المبارك صاحب البركة والعلم والنور علينا. نحمد الله على أنه أرسل لنا شيخا فاضلا به

شفيت جروحنا، وازداد فيض نبعنا وخيرنا، وكل هذا فضل من الله. رسالة الشيخ كلمة مطاعة عندنا، ونحن هنا لأجل جعلها تخدم البلاد والعباد والدين.

وجاءت كلمة القائد:

((. الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله المصطفى الكريم، الذي به فتحت البلدان لنشر الدين، فخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم واليقين، نشكره على ما هدانا إليه، وما كنا لنهتدي لولا أن أن هدانا الله تبارك و تعالى. ونشكر أحباءنا في قرية ابن السيد على كرمهم وترحابهم وتقواهم. أذكر أبياتا رددها علي الشيخ حين لقائه بي منذ مدة. هي للقاضي أحمد بن عبد الرحمن أحد الكرام المتصدقين والبررة في الدين:

لله إخوان تناءت دارهم وما للورى منها نعت نقير
يهدي لنا طيب الثناء ودادهم كالند يهدي الطيب وهو دخان

لقد ذاع كرمُ قريتكم وورعكم في الديار والبلدان. وربما لم تعلموا بعد، ما تواضع عليه الشيخ السيد فلم يتكلم به لأحد إلا ما عرفه مريدوه ومن تتلمذ على يده في الزهد والعلم والعبادة. شيخنا من كبار شيوخ الطريقة الجزولية. وهو أحد أقطاب وأحفاد أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي. لكنه رغم كون الطريقة والزاوية وقفت على توليه مشيختها وتسييرها، كان دائم التواضع والرفض للَّقب، والبحث عن العبادة والعلم

والعيش مع الفقراء والمساكين، وفتح وإيناس قلوب الغرباء. أخونا الفاضل، بحر محبة وتسامح. دائم الرفض لكل انتماء ضيق. يحز في نفسه التصارع على، أو حول نسب أو ضريح أو زاوية... حيث لم يكن شيئا في الأصل سوى وجود الله. فلمَ هذا التمسك بالفناء وترك من له الوجود والبقاء. كلنا عباد الله. آية كريمة كان يفتتح بها دروسه وجلساته في كل بلاد حل بها، في ربوع كثيرة من بلاد الشاوية ودكالة إلى عبدة وسوس ووادي الذهب وغيرها كثير... فكلها أسرته ومقامه. هي قوله تعالى في سورة الحجرات: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكركم عند الله أتقاكم). **ويذكرنا بقول الرسول الكريم: في سنن أبي داود، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، و ليس منا من مات على عصبية). كما جاء في الحديث. وروى الترمذي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس بنو آدم وآدم خُلق من تراب، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى). التقوى، التي أكد عليها القرآن الكريم في كل وصف للمومنين. لقد كان رحمه الله كلما طفح تعصب إلى قبيلة أو عشيرة، ابتعد عنها بعد نصحها وإرشادها، مذكرا بحديث الرسول الكريم ليس منا من مات على عصبية. كان قول الشيخ الفاضل تغمده الله برحمته و أسكنه فسيح جناته:**

أكبر شر وأخطره على الأمة الإسلامية وعلى وحدة صفوفها وعلى جهادها هو العصبية. والعصبية تفرقة، والتفرقة طمع ومصلحة ضيقة وأنانية حيوانية تشبه تطاحن القطيع مع القطيع. والعصبية درس للمسلمين قبل الإسلام، حتى إنه أصبح جاهلية وضعفا. فالله تعالى أعطانا العبرة بالأوس والخزرج وبغيرهما من القبائل العربية قبل الإسلام. يقول تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم *(وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)* (آل عمران). **ويقول جل علاه: بسم الله الرحمن الرحيم** *(لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)* (الأنفال 63).

الضعف بالتفرقة، والتفرقة بالعصبية، ولا عصبية في الدين. كان هذا أكبر درس تلقيناه من شيخنا الفاضل. كان هو من يعمل به. لم يكن يوما ما جزوليا فقط، بل كان كل الزوايا، زارها بأكملها. انتقل فيها من شيخ إلى مريد، من مخدوم إلى خادم، هاربا من اللقب باحثا عن التواضع لله رب العامين. عارفا أن أول خطوة للسقوط والأفول هي الغرور. والغرور من الشيطان، سبب الخروج من رحمة الله ومن جناته وسبب كل جحيم، والعياذ بالله.

لقد وجد فيكم نبعا صافيا، وفطرة سليمة، وبيئة نقية، كالمولود الجديد، ولد معكم ومات بين أحضانكم مطمئنا مرتاحا .لقد أسعدكم الله ببركة

حسناته ودعائه. سيزوركم كل شيخ ومريد باق على قيد الحياة. فهذا رجلٌ ساطعٌ نورُ علمِه وأخلاقه وعبادته في كل بلاد. كمن يعود إلى حضن أمه. فهو حضن التربية والفطرة السليمة، جوهر السعادة في الدنيا والآخرة. وقد قال عليه السلام: (*كل مولود يولد على الفطرة*). والفطرة توحيد وصفاء روح وعمل شيخنا رحمه الله جعل الفطرة مصفاة روح التوحيد.

لا أستطيع الإتيان عندكم ومغادرتكم دون أن أنقل هذه الحقائق التي رباني عليها الشيخ الفاضل، والتي دعاني إلى نشرها ما استطعت)).

بعد هذه الكلمة الفياضة، تناول الكلمة (عبد القادر بن الشيخ ماء العينين). بلحيته الصغيرة المستقيمة والرقيقة التي تحيط بجنبات شدقيه وتتكاثف على مدار ذقنه، بعمامته السوداء التي اختارها لرحلته الجبلية، والتي جعلها مضفورة بشكل رقيق كذلك مناسب لنحافة جسمه الصلب، بخدين محفورين، تنبعث صرامة من لحاته ونظراته. لا يترك هنيهة لسوء تقدير في التعامل مع شخصيته وأخذ انطباع عنها. عرّف بنفسه وظروف التحاقه بصفوف المجاهدين. ذكر بحركة المقاومة التي انطلقت من الجنوب. عرج على علاقة القرابة التي تجمع بينه وبين أسرة الشيخ ماء العينين. واستطرد قائلا :

((. أيها الإخوة في الدين، أحباب الله المتقون، شيخنا الذي ترحمنا عليه لا تعلمون أنه أحد معلمي قائد المقاومة المنطلقة من الجنوب. إنني أحمل وصية

لكل بلاد تعرف شيخنا المرحوم المدفون بدياركم. الوصية كلام، معدن ذهبي صاف، صالح في كل حين. حكمة الزهد والورع والتقوى هي البحث عن قول يصدق ولا يفنى، ولا بقاء إلا لله تعالى. دائرة الزاوية الجزولية عالم طهارة وعبادة وذكر ودعاء وعمل واستقامة. دائرة مستقلة في الزمان والمكان، تورق شجراتها في كل تربة ويجني العباد ثمراتها في كل فصل وزمان. عمل يطهر الإنسان ويقوم اللسان والسلوك، ويساوي بين الباطن والظاهر فينا.

إنني أرى هذه الشجرة التي اختارها شيخنا لإقامته الأولى بينكم وفي دياركم، وأستحضر التشبيه القرآني الذي يجعلها مفتاح خير لناظرها وزائرها. يقول تعالى في ذكره الحكيم: ***(ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار)*** **إبراهيم: 24-26.**

فالشجرة الطيبة زيتونة كانت أو رمانا أو خروبا أو نخيلا، طيبوبتها من طيبوبة رعايتها والعناية بها. الشجرة التي خلّفها شيخنا هي أثر بركته في قريتكم وقلوبكم أيها الأحباء في الله.

هؤلاء الرجال التقاة الذين نزورهم ونترحم عليهم هم من علمونا الصبر والشجاعة والصدق والوفاء. حاربوا في دواخلنا كل جبن ونفاق،

وكل جهل وشقاق. استأصلوا الشرور التي غرستها مكائد شياطين الإنس والجن فينا والعياذ بالله.

كلام من ذهب أيها الفضلاء، مخطوط أحمله من شيخ شنقيط، ما ورثه أحفاد الشيخ ماء العينين من شيخكم السيد المدفون بدياركم، حتى نُوفِيهِ حقه وشهادته التي تجعلنا عادلين تجاهه.

لقد توفي جدي الشيخ ماء العينين في 17من شوال ليلة جمعة عام 1328 هـ. عن سن يناهز 79 سنة. وما لم تعلموه بعد، ربما، أن الشيخ السيد المدفون بدياركم المباركة كان من مرافقي الشيخ ماء العينين في رحلته إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج والتي رجعوا منها في صحة وعافية و بركة إلهية محيطة جديدة سنة 1276 هـ. التقيا بمراكش قبل الرحلة وتوافقا على السفر البدني والقلبي. رغم أن الشيخ السيد كان أصغر سنا لكنه كان أكثر بركة وإشعاعا وتأثيرا في نفس وسلوك جدنا الشيخ ماء العينين. توافقا في كثير من الأمور، وكان تأثير شيخنا السيد على جدنا كبيرا ألهمه بكرامات وعطاءات غزيرة لا يفصح عنها من كان يريد وجه الله بقلبه وعمله)).

تجدد الترحاب و العناق و التآخي.عزز الكلام والحمد لله علاقات الجالسين في المجمع. استأذن عبد العزيز العبدي، من منطقة عبدة، بوجهٍ أحمر ممتلئ نبضا وحيوية، يوثر دائما جعل قب جلابته الصوفية المزركشة على رأسه جل الأوقات، لذلك تجده لا يستعمل رزة أوعمامة في الغالب،

فقط أيام البرد القارس، وأخذ الكلمة باعتباره أحد المرافقين لجماعة المقاومين:

. هل تعلمون أن هذه البلدة، أول مقام نفتح فيه قلوبنا، و نجلس فيه لهذا الحوار والشهادة. ومتى صدقت الكلمة صدُق العمل. وإنما الأعمال بالنيات كما قال الرسول المصطفى الكريم صلى الله عليه وسلم.

(أنا عبد العزيز العبدي). أتيت من منطقة تانسيفت ضواحي آسفي. لقد تربيت على يد الشيخ. كنت مريدا عنده بمراكش أيام مقامه بها. الشيخ السيد قرر الخروج من مراكش فجأة، وقد لازمته لثلاث سنين بها. طلب مني الاستعداد للسفر في بلاد الله الواسعة لطلب فضله وشكره على خلقه ونعمه، والاستشهاد على عجيب صنعه وإبداعه. لم أكن أعلم وجهته. لكن، اختراقنا لطريق، ومرورنا من بلدة إلى أخرى، بَيَّن لي قصده. طلبه لعبدة والشاوية. لا يمكن تحديد مدة زمنية للرحلة، لأن السفر بيد الله والأعمار بيد الله، لا تحديد لغيب آت إلا بما أراده الله تعالى عَظُم ذكره. لا سؤال لي حول الهدف الخاص من الوجهة. فكلٌ سلوكٌ وعبادة وتقوى، لم تكن أرجاء الزاوية هي مجال التقوى، بل أفضل استقامة وتقوى حين السفر في بلاد الله، في تأقلم مع الأقوام والعادات وأشكال المعيش وكسب الرزق وإنفاقه. تصوروا أننا كلنا خلق الله، ولو أراد لجعلنا بلسان ولون معين غير ما نحن عليه، بعادات وطريقة عيش في جبل بدل صحراء في بحر بدل بر،

لكان له فعل ما يشاء ومايريد سبحانه و تعالى. وهذا درس السفر الذي يُذَوب ما بنيناه من أنانية خاصة.

إنما ما تردد من تساؤلات بدواخلي، أجابت عنه السنون الستة التي قضيناها بديار عبدة والشاوية. تبين لي هدف الخرجة، وما حققته من مقصود رسمه الكلام عن المنطقة، وأنا ابن المنطقة .بلاد مراكش بلاد سبعة رجال. وهو عدد لا يترجم التقاة الصالحين الذين مروا ودفنوا بالمدينة، وعاشوا بين أهل المدينة. إنما العدد يحصر دائرة الاشتغال الأولى، كمدرسة لها مقررها الرسمي، إذا استوعبته انتقلت إلى مقررات أخرى.

لقد كان الشيخ محافظا على زيارة الأضرحة السبعة وملازمة أهل الزيارة والعبادة والذكر وكل ما فيه حسنة وخشية لله تعالى. لكن محافظته على الترحم على أولياء آخرين كانت مستمرة، ما يذوب الرقم سبعة في سلوك الشيخ السيد تغمده الله برحمته آمين. كان الشيخ رحمه الله كلما ذَكَّرْتُه بمنطقتي، وسبعة رجال منطقتي، ابتسم والتزم صمتا ظريفا ودودا. لم يكن يريد الخوض في مقارنة ولا مناقشة بلغو في كلام. هيأ لجوابه على مقارناتي وتساؤلاتي بالسفر والمعاينة والملازمة والمجاهدة والسلوك والعمل والتقرب من أهل البلاد. هذه حكمة الشيخ وبرهان مشيخته ومَعلمته، أجوبة تنفجر عملا بما علم.

سأل شيخ القرية أمغار ضيفه عبد العزيز العبدي:

. أما سبعة رجال مراكش نعرفهم. لكننا لا نعلم من هم "سبعة رجال" الذين خرجتم لزيارتهم.

. أعلم أن المشهورين هم سبعة رجال مراكش. لكن هناك سبعة رجال آخرين. أما سبعة مراكش فهم عرب. و سبعة رجال منطقتي فهم بربر.

ما اطلعت عليه مع الشيخ السيد، في كتاب العيون المرضية للمؤرخ أبي الوليد عبد الكبير الشاوي، أنهم شيوخ وفقهاء أتقياء صالحون عارفون عابدون خاشعون مخلصون لرب العالمين، شاهدوا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ودعا لهم بالبركة في نجاح مقصودهم ونيل مرادهم.

هناك الزاهد سيدي أبي بكر الشماس، الموجود بزاوية أقرمود. هناك الناسك أبو الفضل سيدي صالح، بن بوبكر الشماس بأقرمود، القاطن بحويرة على ساحل البحر. ومنهم سيدي عبد الله أدناس، عند المناصرة، وسيدي عيسى بوخابية بواد حربلة على طرف وادي تانسيفت، وسيدي يعلى بن واطيل، الموجود بمسكرز أو امسكر، وسيدي سعيد بن يبقى بواد طمست غرب وادي شوسران.

تدخل أمغار: لم تذكر السابع يا عبد العزيز.

. نعم، السيد واسمين طبعا، الموجود بجبل الحديد وهو الذي تسلم الرسالة من الرسول صلى الله عليه و سلم. ما كان يهم الشيخ السيد هو ذلك

الارتباط الاجتماعي الذي يحيط بهؤلاء الرجال السبعة. فالذين ماتوا سعداءَ بلقاء ربهم، طامعين في مغفرته. والله واسع الرحمة: (*إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء*) صدق الله العظيم. إنما المشكل في الأحياء إذا ضلوا طريق العبادة وهو مليء بالأشواك. الجهل عدو الإيمان كما أنه عمى العقل. هكذا يفتح الشيخ جلسته مع مريديه أحيانا كثيرة.

من أكبر قبائل مصمودة، هناك رجراجة كانوا من أتباع عيسى عليه السلام وهم من الحواريين. لما سمعوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم)، سافر السبعة إلى المدينةالمنورة، واتصلوا به (صلى الله عليه وسلم) فحملوا رسالة الإسلام وكانوا من الصحابة الأجلاء.

كان الشيخ السيد رحمه الله لا يُذكّر إلا بالخير والسيرة الصالحة لمنطقة الشياظمة والزوايا المنحدرة في المنطقة. ما قاموا به لمحاربة المحتل البرتغالي وغيره عبر التاريخ.

الزوايا ملتقى المومنين، مجال التربية والسلوك بقلوبهم إلى طريق الهداية والعبادة والعمل السليم. هي لحمة تذوب فيها العصبيات لينتصر الإيمان وتنتصر الأخوة الدينية التي أرادها الله ورسوله للمسلمين، والتي ننسى أواصرها فنتنازع مثل الأطفال الصغار حول نعيم الدنيا الزائل وننسى أن ما هو عند الله خير وأبقى. يقول تعالى : (*و الباقيات الصالحات خير عند ربك وأبقى*). صدق الله العظيم. وحيث حل الإيمان اتسعت دائرة الأخوة الدينية

وضاقت كل عصبية. هذه من وصايا الشيخ السيد رحمه الله. لقد استطاع أن يذوب ما علق من أحقاد وخوف بين أتباع سبعة رجال العرب والبربر. لا فضل إلا بالتقوى. هذا ما علمه بسلوكه بينهم وأنا معهم ومعه. كلنا من آدم وآدم من تراب. جعلنا الله في خدمة الدين ورحمة الله على شيخنا وعلى كافة المومنين. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الأمة جسد واحد لها جلد واحد، وكل عصبية أو حمية إنما هي سلخ لهذا الجلد. فهل يحب أحدنا أن يسلخ جلده بيده. من يستطيع المحاولة؟ لذلك نَفَّر الرسول الكريم والقرآن العزيز من العصبية ومن خبث القول الذي يوصل إليها (*أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه*).

تكلم الشاعر، نطق حكمة، استنتجها مما سمع وراقَه ما سمع:

. الضلال صراعات واهية وفارغة. وهي التي نخوضها فيما بيننا، بينما العدو الكافر يريد الاستيلاء على خيراتنا. أتذكّر كَمْ من كلام قاسٍ تبادله الناس وهم مسلمون في الأسواق والبلدان التي تعرفت عليها في حياتي. كم سبَّبَ ذلك من عداوات وصراعات وتقاتل بين المسلمين. كيف يتقاتل الإخوة؟ الأبله منا يعرف أن هذا أمر مستنكر مرفوض.

قرية ابن السيد

الجزء الثاني

بداية القرن الواحد والعشرين

مؤتمر التسامح

في الفندق

جلس محمد بن المصطفى بن الشيخ ببهو الفندق. فضاء واسع بأرائك فاخرة. جنسيات متعددة. سياح ألمان وفرنسيون. وكذا بعض ضيوف المؤتمر أو الملتقى العالمي للتسامح الذي تستضيفه مدينة مراكش في هذه السنة الخامسة من بداية القرن الواحد والعشرين. محمد بن المصطفى، خريج كلية العلوم بجامعة القاضي عياض. واسم القاضي عياض صديق له في مكتبة أبيه وجده بقرية ابن السيد .اختار الدراسة بألمانيا. وبعد أن أنهى التخصص بشهادة عليا، توجه اهتمامه للدراسات الفلسفية ومباحث التصوف. اختار مسارا صعبا يجمع بين الحقيقة الحدسية في التأملات الروحانية وبين الحقائق التجريبية والنظريات التي سجلتها العلوم الفيزيائية في مسارها الطويل لقرون.

إنما حضوره للملتقى الدولي للتسامح كان بشقه الروحاني الزهدي التصوفي. فهو ابن الزاوية وحفيدُ مؤسسٍ لتاريخ جديد لقرية ابن السيد وشيخٍ جامعٍ لفلسفة زهد اجتماعية ومقاومة. فلسفة أبي العباس السبتي كذلك التي علق عليها الإمام ابن رشد بعبارة (*الوجود ينفعل بالجود*). كل هذه المعطيات تشكل مرجعية نفسية ولاشعورية موجهة لشخصية محمد بن المصطفى، مشجعة له لِشَقّ مسار العلم والبحث والعبادة. وهي مسارات لا منتهية وشاقة.

حين استحضاره لمرويات الأسرة والقرية حول جده وشخصيته ودوره التاريخي البسيط والكبير في آن واحد، يتساءل حول ما يمكن أن ينهله من هذه الذاكرة في تواصله خلال ملتقى التسامح العالمي هذا بمدينة مراكش. لقد عمل محمد على جمع كل الوثائق التي يمكنها أن تسجل ذاكرة القرية وما يرتبط بها. أمله أن يخرج إبداعا يسجل بصمة لها بين بلدان العالم. تضم أبيات الشاعر التي كان يرويها بالقرية قبل مجيء جده لها، بحث عنها خلال شبابه ومرحلة دراسته الجامعية بمراكش فوجدها محفوظة عند بعض نساء القرية، رغم الصعوبات التي واجهته في طلبها والسؤال عنها، وهو ابن شيخ القرية وأبيها الروحي.

لكن الواقع الحاضر حوّل مجال توظيفها إلى استخراج القيم التي تناسب سياق الحياة الجديدة، واستقراء الواقع الثقافي والاجتماعي لبلدته، وكذلك

الاستدلال على حياة وجدانية وعاطفية كانت عند الأقدمين. ذلك أننا نحسبهم أمواتا بدون قلوب عاشقة. ربما هي أنانية عفوية حاضرة في أذهاننا. لا يستحضر من القصيدة إلا بعض أبياتها:

ليت الهوى أسعد الفؤادَ	امتطى الجوادَ لاحق الأبعاد
صاح الشوق نسيما هائـجا	اخترق السياج سكن الأسعادَ
ما لي لا أقتحم الخيامـا	أقتحم حلم الحبيب أشارك الوسادَ

أي سياق يجعل بوحه بها وقراءته لها مقبولة شرعا وعلما وأدبا؟ لا بد من حيلة. بين بدايات القرن العشرين وبدايات القرن الواحد و العشرين، القرن من الزمان. جَمْعٌ لحدّيْ بداية ونهاية، هذه المسافة الزمنية، في هذه الجلسة ببهو الفندق الذي يقيم فيه بدعوة من منظمي الملتقى العالمي للتسامح، ماسكا قلما بأصابعه، لا يفارقه، والذي يعتبره سيجاره المفضل خلال مستملحات الكلام مع معارفه ومع طلبته بمدينة فرنكفورت الألمانية. أجندته أمامه. لباسه العصري بألوانه المفتوحة وربطة العنق المنفتحة. كل شيء دال على شخصية عصرية حداثية.

كان تأكيده على نادل المقهى بالفندق بإبريق شاي بدون نعناع، و "مشحر" مطبوخ بنار هادئة، كما طلبه منه، مبتسما: . براد صحراوي مشحر.

ساعدته هذه الجلسة المنفردة على خط كلمات وخاطرة حول التسامح. أرادها بطريقة الممارسة الصوفية، بتعبير نابع من نفسية تربوية، ما تربى عليه، ما رسخ في كيانه من قريته وأبيه وروح جده وقريته ودراساته العلمية والفلسفية. كيف ستكون كلمته في عشرين دقيقة؟ ليس مجال تفصيل النظريات والدراسات. طبعا لا بد من التركيز على إشارات في صلب المحور الذي استضيف لكي يكون مساهما في نشاطه: (التربية على التسامح).

موافقته على هذا المحور من منطلق الثقافة الصوفية ومجال حياة شيوخ الزهد والسلوك والعبادة، من منطلق المناخ الذي تربى فيه. كيف يمكنه نقله تجربة حياته الشخصية برؤية العالم الباحث؟ كيف يرقى مفهوم التسامح بين الأديان عنده إلى ما يناسب المطلوب؟ وهذا المطلوب عنده هدفُه شفاء القلوب، والتطهير من العيوب. وكل إنسان عنده الشفاء والتطهير مرغوب. ها هي الخاطرة بدأت تلقائيا بهذه القوافي السجعية. كيفما كانت جنسية هذا الإنسان أو ديانته أو ثقافته... وهذه بنية تحتية بلغة ماركس الألماني لتأسيس قيمة وبناء التسامح.

هكذا بدأت تتأسس الأفكار الأولى لمداخلته حول التسامح. لكن، يبدو أن عالم الخواطر سبق في الهجوم على الصفحات البيضاء أمامه: (التسامح شفاء للقلوب، أردتَ مجتمعا مثاليا، لم يتحقق بالخارج. امتصصت شكاوى وآلام الضعفاء والأقوياء. لم ينضب ألم، ولم ينعدم شر ولا دس ولا مكيدة من النفوس والسرائر. نصبت شهادة السماحة والابتسامة. تركتهما عَلَمين واقفين منتصبين في ساحة وغى غمت سماؤها، غابت نجومها، انعدمت رؤيتها بين منتهز لغنيمة ومشتكٍ من ضرر أو هزيمة. ها أنت الآن تستريح وتعلم أنّ أَمَلَكَ عرش في السماء ورسالة في القلوب، وتحقيق نسبي إيجابي في الحياة.

تنام حيث أنت راقد، تسمع بروحك، تسجل بإيمانك وأملك، أبراجك ملألأة باعثة لدفء في شتاء قارس، ولظل في صيف حار دارس. يجري الناس نحو سراب، يمتلكون كل ما يمكن امتلاكه، ولا أثقل مِلكه قلبك، ولا اهتز له مملكةً.

أنا منك في بعض ما أنت منه، لكنني لست ملاكا خارجا عن واقع، مجردا من مادة. أنا منك في محاولاتي مع شيمك وقيمك وابتساماتك. في هدوئك وصمتك وقراءاتك. الخيرُ خيرٌ أعمُّه وأخصه، والشر شر، أخف الأضرار محله. داخل رماد الإنسان تبحث عن بذرة لتنبت منها زهرة جديدة، داخل الحطام تنتشل ما تبني به كيانا جديدا.

هذه شهادتك، لك، تربية مدينة، تكوين أجيال، خبرة سوسيولوجية ولمسة أخلاقية ودينية. ما اهتز القلب والفؤاد لدنايا الأقوال والأفعال، ينام على ذكر وعبادة ويستيقظ على شهادة وقراءة.

أكيد توازنك صبر كبير. حينما يكون التوازن تحمل لشبكة علاقات اجتماعية وتداخل مشاكل وقضايا يومية لدائرة جماعة تتسع مع الزمن والمكان. هذا التوازن المفروض يحتاج إلى صبر وتحمل كبيرين. أكيد احتجت إلى محور داخلي تجرده من الواقع لكي تَهَب منه للجميع ما جاء من أجله وما استطاع أخذه، وما قدرت على تحقيقه.

أنا منك ما استطعت، لكنني أنا مجرد إنسان أعيش بين أناس بما استطعت. حتى التوفيق درجات ومستويات، حتى التوازن درجات، فتترك لكلٍّ ما استطاع السمو إليه والرقي لأجله. قد تساوي توبةٌ الملايير، وقد لا تساوي حَجةٌ ركعتين. لكلٍّ ما استطاع، ولي بقدر ما استطعت. عبرَه تعلم قلبي، عبره تعلم قدري، أنا منك صفاء الماء من الماء، خلود مستمر يجري ويسري، ابتسامتك تملأ قلبي).

هكذا كانت شهادة إنسان لم يرد أن يخرج عن نسبيته، بل لم يرد أن يكون ملائكيا، تواضعا للخالق العالي، هروبا من كل غرور يوقع الجهل والعمى القلبي.

لابد للقلب أن يعبر:

لمن يهتز هذا القلب؟

أي رسالة؟

نبض الحياة...

لمن يهتز هذا القلب؟

عشق الألوهية

بها يعانق بوابة السماء

عشق المحبة

لكلِّ ابتسامة رحباء

لمن يهتز هذا القلب؟

هذا القلب،

سجَّل انتماءً للإنسانية،

والضياءْ

في السراء و الضراء

هذا القلب:

لمن يهتز؟

يدير الأنفاس و الأعضاءْ

قلب للجميع عاشق

للطفل الصغير،

و النسمة الزهراءْ.

بعد حوالي الساعة من جلسته وخواطره، التحق به بعض ضيوف المؤتمر المقيمين بالفندق. الأول من جامعة السربون الفرنسية. جمال بلقاسم، وجه صغير مستدير، بعينين سوداوين وآثار شاربين مستنبتين. جاكيت بلون بني فاتح، وقميص أبيض بأزرار صغيرة منقوشة بأحرف لاتينية دقيقة تتماشى مع لون الجاكيت، وطوق مستدير صغير يعطي حلة رشاقة رياضية شبابية رغم عمره المتقدم عن هذه المرحلة. يزيده سروال الجينز الأنيق والحذاء المستوي بدون كعب من خفة الحركة والجلسة والمشي. ذقن بارز يتخذه مستند اتكائه بإبهامه وسبابته حين الانتباه في حوارٍ أو تفكير قبل الكلام. ترتسم الابتسامة التأملية على حركة رموشه وضغطه على شفتيه المطبقتين في ارتجاج متوجس. جزائري الأصل، متخصص في الفلسفة الإسلامية بباريس، وله دراسات حول ابن عربي. اشتهر بمداخلاته حوله وبمحاضراتٍ في جامعات عديدة بإسبانيا وإيطاليا.

المؤتمِر الثاني، مسيحي من إيطاليا، بلمحة إيطالية جاحظة العينين. وأسنان مستوية بتناسق بين الفكين، وخدين محفورين يتركان للملامح العظمية فرصة التعبير عن أثر رياح البحر الأبيض المتوسط العابرة مِلْحا وحصى لامعا لامتداد شبه الجزيرة الإيطالية. جلس ببدلته السوداء، وقميصه المستدير بدون ثنايا و المشدود بزِرٍّ كبير لامع كغُرّة من بعيد تميز هيأته. مهتم بحوار الأديان والحضارات. يحاول نقل رؤية الفاتيكان لحوار جديد ينبذ العنف ويؤسس للتسامح وحرية التدين.

المرجعيات الثلاثة مختلفة نسبيا، ومحمد بن المصطفى مدرك بذهنه لنقاط التلاقي والافتراق بين الأطراف الثلاثة. وهو واحد منهم. بين ميل روحاني حدسي وآخر عقلاني فلسفي وثالث ديني كنسي، لا بد من وجود خيط رابط. وما الرابط؟ لعله محور التقائهم وملتقاهم الذي يخلّد اليوم العالمي للتسامح. هل ستكون مداخلته في تناول هذه الجوانب الثلاثة الماثلة أمامه في جلسته ببهو ومقهى الفندق الفاخر هذا؟ ماذا عن المؤتمرين الآخرين؟

لعل هذه الجلسة منطلق ومفتاح لصياغة مفهوم للتسامح جامع بين تيارات عالمية كبرى روحانية حدسية وعقلانية ودينية أخلاقية. لعل كل واحد من هؤلاء المؤتمرين تتوفر في دواخله هذه الجوانب بنسب متفاوتة:

الحدس والعقل والوحي. كيف يمكن توظيف العناصر الثلاثة في ورقة . مداخلة حول التسامح؟

هل سيقوم بالعدول عن فكرة المداخلة الأولى إلى هذه الفكرة الجديدة؟ والأولى أكثر براءة وصدقا داخليا لكونها تنبع من عواطف شخصية إنسانية؟ والتسامح يحتاج إلى صدق داخلي أكثر؟ فهو يميل إلى الالتزام الأخلاقي والمعنوي قبل كل التزام أو تصريح في ملتقى أو مؤتمر.

سأله الضيف الايطالي عن علاقته بمراكش، ربما أراد نافذة يطل بها على ثقافة المدينة وسكانها.أجابه محمد بن المصطفى بدعوة لتناول كأس شاي معه، ثم استمر في البحث عن كلمات يختصر بها الجواب على السؤال:

. مراكش هي هذه الصينية و كؤوس شايها. لكن مراكش كذلك عندي، فضاء يمتد خارج أسوارها. يمتد من جنوب الصحراء، من السمارة حتى عبدة ودكالة شمالها. مراكش أبواب ومسالك. تاريخ مراكش وثقافتها هي تفاعلها و إنتاجها لوعي عندي أعيشه أينما ذهبت. دائم السفر بروح عبر ربوعها وجبالها وامتدادات جنوبها. يمكن أن أستقي منها موضوعا للتسامح يفيد لقاءنا و ملتقانا.

تدخل الأستاذ السوربوني: . أليس لي حق في مراكش يا سي محمد؟ أليست كؤوسها لضيوفها؟

. طبعا، طبعا، رد محمد بن المصطفى مبتسما وضاحكا. سننادي على براد آخر ساخن. فهذا قد فرغ. لا تخف، مراكش لا تنضب كرما. وهذا من شيم تسامحها، ما دامت هي الأرض المستضيفة لهؤلاء المتسامحين الباحثين عن حلقته وفضاءات مراكش وزواياها.

ابتسم الجميع، مع التشوق للصينية الجديدة والبراد الساخن. تدخل السي محمد بالحديث:

. لا تنسوا أمغار، شيخ القبيلة، هو الذي يتكلف بصينية الشاي. فهذا عرف الشاي، ما دمت مراكشيا . فأنا أمغاركم.

. لك ذلك يا زعيم قبيلة تسامحنا. علق الايطالي.

. هل يمكن لنا أن نقوم بزيارة لمعالم المدينة؟ تساءل جمال بلقاسم. هذا اليوم خال من الأنشطة، فالملتقى يفتتح غدا.

. يمكن أن نسأل مسير المقهى، ربما يدلنا على مرشد أو طريقة ركوب مناسبة. علق محمد بن المصطفى.

. ألست أمغار ابن المدينة يا سي محمد؟ أنت مرشدنا إذا.

. في الحقيقة، عندي حلم متجدد أريد اختباره. لكن لا أدري إن كنتم على استعداد له؟

. أستسمحكم القول، اختبار التسامح هو هذا التواصل اليومي المعيشي بين أجناس البشر، لأن مداخلات الملتقيات والمؤتمرات أفكار جاهزة وتساؤلات محيرة، لكن الحياة منفلتة من ساعات محدودة للقاءات. هكذا علق الإيطالي مريداً بذلك جعل لون وأسلوب على مناقشتهم داخل مقهى الفندق.

ذَكَّرَ جمال بلقاسم أستاذ السوربون محمد بن المصطفى:

. ما هو الحلم المرافق يا سي محمد؟

. زيارة سبعة رجال.

. هل نخضعه للتحليل النفسي وتفسير الأحلام أم نتسامح معه في الحال؟

. كما تشاؤون. يبدو، أن مؤتمرنا سبق افتتاحه. ما رأيك في التسامح يا جمال؟

. و أين هو هذا الحلم آسي محمد؟

. مفاجأة مرافقة لجولتنا داخل مدينة مراكش. تعلم أن العلم عمل عند المتصوفة . وبعد العمل استنتج وفَسِّرْ، لكن لا تنس، ستصبح أنت كذلك مشاركا في الحلم، عضوا داخل فريقه.

. أنا على استعداد ما دام تجوالا وسياحة في مدينة جميلة.

. والتسامح داخله. علق الإيطالي.

. نعم، أكيد.

. ما التسامح عند جمال الإنسان وليس الأكاديمي المؤتمِر؟ جدّد محمد السؤال.

بدت على بلقاسم تحفظات حركية وتغير في وضعية الجلوس. كأنه داخل لامتحان جامعي. لم يترك للتلقائية ومداعبة الكلام فرصة. بحركة يدٍ ثابتة بدأ كلامه حول التسامح:

. في الحقيقة أتساءل إن كان التسامح هو قبول الآخر، قبول الاختلاف، احترام حق الآخر وتوفير حريته، بحيث تبدأ حريته حينما تنتهي حرية الآخرين، أو بتعبير فرنسي تنتهي حريتي حينما تبدأ حرية الآخرين. هل سيكون هذا هو التسامح في صوره الديمقراطية أم سيكون أمرا آخر؟

هل سيكون التسامح هو أن يتبنى الآخر مواقفي وصورتي واختياري، وإذا ما رفضها فهو غير متسامح؟ يستفزني هذا الرأي لأنه واقع الحال. واقع العلاقات الدولية وعمليات التأثير و التأثر القائمة بين القوي والضعيف.

وإن كنت لا أحبذ فكرة الصراع الحضاري، لأنني أؤمن بأن مزايا الحضارة المعاصرة في سفينتها الغربية تحمل إيجابيات كثيرة، وبفضلها حققنا هذه القيم في الديمقراطية والتسامح. إنما جدلية الأشياء حاضرة كذلك. لا زال داخل

العقلية الغربية حضور المركزية، مركزية الذات وحبها، جعلها محور ومنطلق الأحكام والمعايير. كانت حاضرة بوضوح في القرون الثلاثة الماضية مع المركزية الأوربية، لكنها اليوم مغلفة بخطابات جديدة ووسائل تأثير وبلوغ هدف خفية. لا أستطيع تحديدَ مفهومٍ لأن الواقع منفلت بحالات شروده. أنا أُسائل الغرب عن الإطار الذي يحدد التسامح في تفكيره وسياساته، هل هو عادل إنساني أممي أم محكوم بمقاييس خاصة وبتاريخه ومصالحه؟

. اسمحوا لي فإنجليزيتي متواضعة. قد أرتكب أخطاء في النطق، فساعدوني على النجاح في التعبير من فضلكم جميعا.

. بالرحب والسعة. علق محمد بن المصطفى مبتسما. ألسنا مجتمعين لأجل التسامح؟ تفضل، ولو كنا نعرف الإيطالية جيدا لطلبنا منك الكلام بها.

. في الحقيقة، هذه ثالث تجربة لي في لقاءات دولية. وطبعا، فقد اختلفت آرائي وتطورت كثيرا عن التجربة الاولى، حتى إننا أصبحنا نشكل اتجاها خاصا ولو كان صغيرا في عدده داخل الفاتيكان فيما يخص موضوع التسامح. وما دام تسامحا، فالكل متسامح معه كتسامح.

أرى أن سبب اللاتسامح هو أولا الجهل بالآخر. سوء الفهم له. رواسب الماضي العالقة في الواقع وفي الأذهان. ولو استطعنا ممارسة هذه العناصر

لحققنا التسامح، ولم يعد مجرد شعار للمؤتمرات والملتقيات. التسامح طريق للسلام.

اللاتسامح طريق للحرب والعنف والدم، ولو بشكل نسبي. المسيح عليه السلام خلّص البشر من الذنوب. تسامح مع الدنيا، فلم يأخذ معه شرا. درس المسيح عندنا يجعلني أبحث عن سلخ الآخر من الشر و من اللاتسامح من دواخله، لكي أطهره وأجعله في حب وسلام، وأتحمل أنا هذه العملية في التطهير والتصفية. في تعاملي مع الآخر صبر متسامح يذيب جليد الكراهية والحقد. يغسل القلوب حتى لا تجد إلا الحب لأجل الحب لله وللحياة وللإنسانية. وهذا درس المسيحية في التسامح. أما التجربة التي ما فتئ الانتقاد يوجه إليها، وتدخل ضمن هذا الطرح في محاولة تطهير الآخر، فهي الاعتراف الذاتي بالخطأ، وبدرجة الجهل التي تؤثر على وعيي وتصرفي.

مَنْ منا يستطيع الاعتراف بأخطائه أمام من أساء إليهم؟ يصل إلى درجة الصدق كأنه في كرسي اعتراف تاريخي؟ قد تكسر هذه الأسئلة أشكال كبرياء وأنانيات، لكنها مفتاح للتسامح الحقيقي. ولعله رسالة أصبحت ملزمة للمؤمن بها ولو بتحمل أذى معارضيه.

في حواراتي أصبحتُ أطلب نقد هويتي ومكوناتي. ما هي الأخطاء التي تراها في كنيستي ومسيحيتي؟ أراجع، أصحح، أعترف، أُغير مواقفي دون أن يجعلني ذلك أفقد ذاتي ومسيحيتي. الكنيسة ليست هي الدين. طيب،

أطلب أخطاءها ممن يحاورني حتى نصل إلى درجة تسامح قلبي صافٍ. هكذا تكون ذاتي وعقلي وتواصلي منطلقا لتحقيق هذا التطهير وهذا التسامح مثلما فعل المسيح. أستسمحكم في صراحتي، فقد ارتاح معها قلبي. شكرا.

. شكرا جزيلا لك، الأب أنطونيو. في الحقيقة طرحك ثورة معرفية ونفسية للإنسانية جمعاء. نتمنى أن تمتلك قلوب العالم أجمع. ولولا انشغالاتي الأكاديمية لانخرطت معك فيها من منطلقاتي في الاهتمام بالتصوف وتجربة المعرفة فيه.

يتدخل جمال بلقاسم:

. نحن ضيوفك السيد محمد، ولا زلنا لم نسمع لك فيما يخص موضوع التسامح. هل يجب أن نستسمحك في السؤال عنه؟ لك ذلك.

. عفوا، سأعتبر سؤالك كرما زائدا. أفكاركم نيرة وجميلة. كيف أضيف شيئا عليها قبل أن أتغذى بها. ولكن، إن كان لابد من الإدلاء بفكرة، سأحاول ذلك. واعذروني عليها.

. سامحناك آسي محمد. تفضل، علق الأب أنطونيو.

. في الحقيقة، قبل حضوركم لهذه القاعة بالفندق، كنت أفكر في الورقة التي يمكن تقديمها بطريقة جديدة، تثير تساؤلات جديدة. تضيف مكتسبات لموضوع التسامح الإنساني. وقد وعدتكم أن أجلّيَّ هذا التسامح من خلال

زيارتنا لمعالم أثرية وأماكن بمدينة مراكش وضواحيها. إنما يمكن تقديم هذا على ذاك. سأطرح تساؤلات معكم. ربما نفكر فيها جماعة. فنعمق طرق علاج مشاكلها. سأطرح ثلاث دوائر، ولا أريدها أن تكون انقلابا على ملتقى التسامح. بالعكس، من خلالها ربما نقترب من زوايا معالجة أمراض النفس الإنسانية التي تعرقل تحقيق التسامح بين بني البشر.

دائرة الظلم، دائرة المحبة، دائرة التسامح:

الظلم ـ المحبة ـ التسامح

أخترق المتناقضات في هذه الدوائر بالدائرة الوسطى، وهي دائرة المحبة. أنطلق من بعد الزهد والتصوف وتجربة الحب الإلهي. كل ما أراه فانٍ، حيث لا يبقى سوى وجه المحبوب. فهل أقابل المحبوب بظلم أو لا تسامح؟ أُخلّص نفسي من غرائزها الحيوانية، أنقلها بتهذيب إلى رحاب قيم الحب والتسامح والسلم والتعايش. هي تربية على التسامح تتماشى مع أحد محاور هذا الملتقى الدولي حول التسامح. إنما مادام نقاشنا بيننا نحن الثلاثة، أسائل نفسي معكم:

هل تحقيق التسامح يمكن أن يكون بمحاربة الظلم الحاصل في الذات وفي الموضوع؟ بصيغة أخرى: هل يجب تتبع أشكال الظلم الحاصل ومحاربتها لأجل الوصول إلى قلوب متسامحة؟

وهل محاربة الظلم يمكن أن تكون وتقع بلا عنف ولا ظلم مضاد؟ لنا في تجربة غاندي ومانديلا ومارتن لوتر نماذج رائعة. إنما الأسئلة تخصنا نحن الآن، بعد أن أدى هؤلاء رسالاتهم وواجبهم، وينتظرنا واجبنا تجاه الإنسانية ومجتمعاتها. أظن أن الأهم في هذه الملتقيات هو طرح مزيد من الأسئلة وتعميق مناقشتها، فهي مفتاح التقدم في موضوع مثل التسامح. لكن اسمحوا لي أن أنادي الآن على النادل، إن كانت لديه فكرة تخص زيارة المدينة؟

. اذا سمحت، كيف يمكننا تنظيم زيارة لمراكش ورؤية أضرحة سبعة رجال بها؟

. عفوا، سأنادي على مرشد سياحي خبير بمراكش معنا في الفندق، يمكنه الإجابة حول طريقة الزيارة.

. هذا رشيد. وهو مرشد سياحي. كيف نستطيع تنظيم زيارة لسبعة رجال؟

. أول شيء، كم الساعة الآن؟ أظن أنها الخامسة بعد الزوال وزيادة. والوقت لا يكفي لزيارة الأضرحة السبعة. أنظروا إلى خريطة المدينة تحت زجاج الطاولة أمامكم، تلاحظون نجيمات خضراء موزعة على هذه الخريطة الحمراء. أنظروا إلى أرقامها، أين هو رقم واحد وما يليه حتى سبعة. ألا تلاحظون أن واحد وسبعة يوجدان خارج أسوار المدينة. ثم إن الزيارة في عرف المدينة منظمة ومتبعة لهذا الترقيم والترتيب حتى تكون مباركة باعتقاد

أصحابها طبعا. أنتم كذلك، يمكنكم وضع استنتاج ينضاف للحكمة من هذا الترتيب في الزيارة.

أظن يلزمكم الصباح للقيام بهذه الجولة، إلا إذا أردتم الاكتفاء ببعض هذه المواقع.

. ما رأيكم؟ تساءل محمد بن المصطفى. الملتقى سيفتتح غدا على الساعة الثالثة بعد الزوال. ربما إذا بدأنا هذه الجولة باكرا أمكننا إتمامها.

. هل يمكنك أن ترافقنا سيد رشيد؟ تساءل الأب أنطونيو طالبا.

. بالرحب و السعة، فقط حددوا التوقيت.

. الساعة الثامنة صباحا، اقترح جمال بلقاسم.

استسمح محمد بن المصطفى في الانصراف، واقترح اللقاء الساعة الثامنة مساء للعشاء. ربما يكون هناك ضيوف جدد للملتقى.

. ماذا لو تسامحنا مع مصاريف الملتقى وخصصناها لمساعدات اجتماعية وإنسانية؟ دائما هناك من هم في حاجة إلينا. تساءل الأب أنطونيو مبتسما وملمحا.

. فكرة جيدة. لِمَ لا نقترحها على منظمي هذه الملتقيات؟ عزز الفكرة جمال بلقاسم.

نسيج العائلة

عبد العزيز بن المصطفى، الأخ الشقيق لمحمد، من بين ستة إخوة وأخوات، يتوسطهم محمد. عبد العزيز هو البكر، أكبرهم سنا. بعد تلقيه لتعليم أولي، حفظ فيه القرآن وبعض العلوم الشرعية، خرج للحياة والتجارة. لكنه، شارك كذلك في وعي المقاومة ونضالاتها. إنما هذه المرة كان خروجه بعيدا عن القرية، باتجاه المدينة الكبيرة. فقد ساعدته التجارة في أسواق مراكش في بداية الخمسينيات على الاندماج في مجتمعها والزواج من إحدى أسرها. جمعه مع أصهاره روح الوطن، المغرب الكبير الذي عمت حملة الغضب فيه بعد نفي ملك البلاد.

كان ذلك النفي رمزاً لإهانة كبرى للمغاربة المسلمين خصوصا. فقد زعزعت هويتهم القوية التي هي الانتماء للإسلام، لعقيدة التوحيد، مقابل عقيدة المستعمر التي يرمز لها الصليب الذي انتصب في مجموعة من المدن المغربية فوق كنائس وبأجراس قارعة.

هكذا أصبح عبد العزيز مراكشيا، منتميا لوطنية المدن .الآن، بعد عُتي عُمُرٍ، أصبح جدا بعد أن زوّج ابنه علي بن عبد العزيز بن المصطفى بن الشيخ السيد، علي بن الشيخ اختصارا، كما يفضل مناداته افتخارا بالانتماء للشيخ السيد حكيم زمانه والأب الروحي لمنطقته، والموجه لمقاومة قوية اندلعت شراراتها في كل أنحاء البلاد استجابة لرسالته الجهادية.

هذا المساء، تخلف السيد محمد عن موعد العشاء بالفندق. اعتذر بالهاتف ووعد بالالتحاق بمجرد ما ينتهي من التزامات شخصية. واجب الزيارة العائلية ومشاركتها انشغالاتها وأجوائها.

في جلسة شاي وعشاء، تداخل الترحاب بالشكوى. فابن علي قرر الزواج من أجنبية تعرَّف عليها كسائحة بمراكش. سعيد بن علي تاجر كذلك. له دكان بالقيسارية المجاورة لساحة جامع الفنا. بائع الألبسة التقليدية، والذي تلقى تعليما جامعيا، لكنه لم يسعفه ولم يساعده على مواصلة الدراسة، ولا حتى الحصول على وظيفة، خصوصا وأن ميوله كانت للتجارة منذ الصغر مع جده، ثم مع أبيه، إلى أن استقل بمشروعه التجاري بنفس القيسارية التي اختبر فيها المعاملات التجارية والمالية في دكان أبيه.

. ابن أخيك، يريد ابنه أن يتزوج بأجنبية. ولا أريد لأحفادي تربية غير إسلامية.

. هل أتى عندك سعيد لأجل هذا الموضوع؟ تساءل محمد.

. لا يستطيع مواجهتي بمثل هذا الموضوع. هو يعلم رفضي المسبق ورأيي في هذا الموضوع. لقد تكلمت في المسجد مع العربي الصنهاجي مفتش التربية الاسلامية وإمام المسجد، فكان رأيه هو أن هذا الزواج محرم ومرفوض. ما رأيك يا سي محمد؟

. في الحقيقة، لا يمكنني قول شيء. سعيد عنده وجهات نظر خاصة. ولا بد من مناقشتها معه بالتي هي أحسن. لا يمكننا الحكم على اختياره هذا الآن. أما رأي الفقيه الصنهاجي ففيه خلاف فقهي كبير، ليس من عمل جميع المسلمين. لذلك فالمسألة متعلقة بالمصلحة ومدى موافقتها للشريعة الإسلامية. طيب، أُتركْ هذه المسألة حتى أناقشها مع سعيد.

حياة وردية

يأخذ محمد بن المصطفى رزمة الأوراق الوردية التي جعلها خاصة بتدوين مسار كتابته لقصة قريته. هذا المسار لليومي الذي جعله بمدينة فرانكفورت، يختار الكتابة، والتي كانت كتابة لقرنين، وقارتين، ومجتمعين، وثقافتي عيش، هذا الفضاء الذي ساعده على الحنين العاشق للتعبير عن ماضٍ سجلته ذاكرته كما عاطفته.

يسجل حديثه عن زوجته سارة وعن ولديه. لا يجد الوصف النهائي لملامح زوجته التركية. عينان حجليتان، وشعر أسود لامع بدأ يخترقه بياض باهت متسللا إلى غابته المسدلة. خدان تحولا من حمرة وردية مشتعلة بالحياة إلى صفحتي توقيع لأثر جمال مستمر في هذا المرحلة من العمر المشرفة على الخمسينيات. هناك سر لا يجد له تفسيرا، يرتبط بسحر جمال سارته التي أحبها. تتقاطعه طلعة ابتسامة أطلسية مغربية، وانطلاقة حياة غجرية، وصرامة إيطالية أو يونانية. يوم أخذ مواد تجميلها وزينها بأشكال الوشم التي رسخت في ذاكرته عن وجوه نسائية بقريته، تدرج في الوشم من أسفل الذقن إلى ما بين الحاجبين. ولما طلبت المزيد من التزيين، كاشفها بأشكال وشم الجدات على مدار العنق والذراعين... لم ينس توظيف الأنترنيت

خلال ذلك النهار لاستكمال لعبتهما، وما قرأه من صفحات لكتاب عبد الكبير الخطيبي حول الوشم (الاسم العربي الجريح) ووشم الذاكرة داخله.

يختار الاغتراب عن الذات في خط الحروف، حتى يترك للبوح أن يعبر بالجديد الذي سيكون ويكون ظلا للذات، لا يمكنها الانتباه له والتصريح به إلا في غفلة عن الحبر أو لوحة الكتابة الإلكترونية، في تذويب للأنا ـ الذات:

اعتاد الاستيقاظ باكرا. طقس يومي في الذهاب إلى المطبخ والتحضير لوجبة الفطور، مرة لشخصين اثنين، ومرة لثلاثة أشخاص أو أربعة... يتناول فطوره بهدوء قبل أن يتوجه إلى قبلة الشرفة المطلة على الساحة الجميلة والمزينة بالورود الملونة، كما بنصب ديك من جرانيت، رمز المدينة التاريخي والذي يفخر به سكانها. يتزين هذا الديك بألوان زاهية تعكس زخرفة الحياة والطبيعة واللباس الفلكلوري وكذا الرياضي لعشاق فريق كرة القدم على الخصوص بمدينة فرانكفوت.

جلسة الصالون الصباحية تكون بنكهة البن ودفء فنجانه، وكذا بالإطلالة على نور النهار الجديد والسارح بالعيون إلى آفاق بعيدة تسمح بها الرؤية من نوافذه وشرفته. أمامه لوحة خشبية منقوشة عليها قولة مأثورة يفخر سكان فرانكفورت كما مثقفوها بالاستشهاد بها عند كل مناسبة، تجمع بين الصيت الاقتصادي والتجاري المالي، كما بين الصيت الثقافي والموقع الجغرافي المتميز الذي يطبع مدينة فرانكفورت. فحينما تلتقي العين مع اللوحة الخشبية المذهبة، تستجمع معطيات كثيرة من المعلومات ومن الذاكرة التاريخية. وكل منطقة تعيش وتستنشق هواءها المتجدد بذاكرتها كما بشرايين الحياة اليومية التي تبعث فيها بالحركة والحيوية وأشكال التواصل البطيئة والسريعة، البسيطة والمعقدة.

من منا لا يفخر باسم كبير من مقام (Johann Wolfgang_von Goethe، جوته). هكذا يكون تواصل سي محمد الصَّبَاحيّ مع رمزية هذه الشخصية التاريخية والفكرية والثقافية عبر قولتها المشهورة، المؤرخة لسنة 1815 في زيارته لمدينته الأصلية فرانكفورت: (*العقل الحر يليق بمدينة حرة*). يليق بمدينة فرانكفورت أن تلمع وتشِعّ وتكون حيوية في كل الاتجاهات.

يبتسم لرؤية الديك الخشبي الملون من جديد أمامه بين ديكور الصالون، إنما هذه المرة بحجم أقل مما أطل عليه في الحديقة. يداعب صباحه المنفرد بمستملحات جديدة ومتجددة: . أنت هنا من جديد!

في حالات نشوته المزاجية يلامس منقاره الأزرق ويخاطبه بلغته داعيا إياه إلى الصياح لإيقاظ أهل المنزل قبل الأوان: . هيا، صِحْ أيها الديك الفرانكفورتي بصوتك التاريخي الحيوي. سيفخر بك (ي.ف.ف.غوته) لتترجم قولته يوميا بصيحة حيوية.

. صباخ الخير سي محمد.
. صباح الخير سارة. نمتِ جيدا؟.
. نعم، بشكل عميق حتى إنني لم أشعر بك متسللا من الفراش.

. كيف كان طعم قهوة الصباح؟ أعجبك؟

. حلو و ممتع، شكرا محمدي.

. لا شكر سارتي. إنما قولي لي: محمدي' بالتركية أم بالفارسية؟ههه.

. بلغة قلبي أنا كما تعلم. لا تضاهيها لغة في التعبير.

. أكيد حبيبتي، هي لغتي كذلك. بصحة قلبينا وحبنا المتوج لهما.

. بصحتك حبيبي. أي محاور كان هذا الصباح الديك أم غوته؟

. ههه. هذا الصباح أطلت عليَّ قرية ابن السيد قبل أن أفتح جفوني. طرقت باب ذهني بسحرها ووثائقها التي تركتها موزعة فوق المكتب...

. هل لامست مراحل إنهاء الإنجاز الذي بدأته؟

. لِم لا تلقين إطلالة عليه هذا الصباح قبل الخروج إلى اجتماع البلدية. . سأحاول ذلك بعد الاتصال ب (فطومة) بالقرية بالمغرب. هناك مشاورات متعلقة بالجمعية ضرورية قبل ذهابنا في رحلة هذا الصيف إلى هناك.

. جميل. أنا سأسبقك للاتصال بولدينا بمدينة بون. سأقترح عليهما برنامج الزيارة إذا سمحت لهما ظروف الدراسة الجامعية والمهنية.

ما تزال سماح مع مقررات سنتها الأخيرة. نسخة طبق الأصل لأبيها. ههه

. كذلك، ابني سليم، نسخة لعمل أمه، هه...

. جميلة هذه الأدوار، متناغمة جدا.

. أهو تناغم صوفي كما تحبه أم ماذا؟

. تعلمين، التناغم في العلم وفي الكون وفي التصوف كما في الحب طبعا. إذا فكله تناغم.

. سأبحث عنه في كتاباتك عن قرية ابن السيد إذا.

. أتساءل عن سبب أو سر جعلك لرمز الديك الفرانكفورتي في كتاباتك موجودا في كل مكان من المدينة، في ساحاتها و قناطرها وفوق أقواسها التاريخية؟ بينما هو واحد أو اثنان أو ثلاثة أعرفها بفرانكفورت. تساءلت سارة وهي متأملة عيني محمديها في جلسة على بساط الصالون متكئة على سند الأريكة التي يجلس فيها سي محمد. وضع لا يمكنك معرفة من المهيمن في حواره ومناخه رغم جلوس هذه على الأرض وهذا فوق الأريكة.

بقيت الأوراق موضوعة فوق الطاولة الزجاجية نصف مفتوحة على إحدى صفحاتها الملفوفة بسبيرال ملولب أحمر. بقيت سارة مبتسمة في فستانها بألوانه المزركشة المذكرة بتقاليد لباس تركية يانعة، و شدة رأس جعلت عقصة شعرها مأخوذة بانطلاقة غابة سوداء ناصعة استدار معها وجهها بلوريا تتألق داخله عينان براقتان.

. المدينة التي أكتبها عزيزتي هي التي أحلم بها. لا تنسيْ أنه كم من جرح يتداوى بالكتابة، و كم من حلم يتحقق بين سطورها. المَعْلَمَة تصبح رمزا. والرمز تصبح له قيمة، والقيمة دافع للحياة بمنطلقات وتصورات وسلوكات معينة. لو أن كل فرد بَلْور القيم الإيجابية لتاريخ تجمعه ومعيشه وعمرانه، لكنا أفضل. وذلك الأفضل هو ما يؤرقني في خط السطر الأول. أجدني أرتعش، ولايطاوعني القلم، كأنه حصان جامح غير مروض، صهيله في حريته، ما دام يشعر أن القابض بعنانه على عنقه يريد تقييدها. كذلك هو قلمي، كذلك هي أناملي وأنا أنقش وأرقن بها لوحة الكتابة على الحاسوب أو فوق ورقة بيضاء عذراء صافية. يتمتع عقلي برقصة الرقن، والتجول من حرف إلى رقم إلى رمز أو إشارة. أشعر كأنني فنان وعازف بيانو يؤدي معزوفة جديدة لم تسمعها أذن من قبل، و لم تُسْقَ بها روح من قبل. أن أكون أول من خطها ورقنها وأسمَعَها وأسعدها، فهذا غاية وجدي ووجودي. أُصبح معه مسحورا، ولا أدري إن كنت ساحرا، فأنا لا أكتب لسحر ما، بل أكتب لروح ما. قد تكون قريتي، قد تكون طفلتي التي لا أريدها أن تكبر في قلبي، قد تكونين

أنتِ سارتي وزوجتي التي أريدها دائما منيرة فضاء حياتي... سري الذي لا أستطيع كتمه عنك حبي وحياتي، والذي كل مرة أبوح لك به، كأنني لأول مرة أقوله لك. كأنك تحتاجينه برهانا مسموعا كل حين مثل قولنا: أحبك، أحبك. أنت شمس ضيائي الذي لا أستطيع أن أغمض عيني إلا بعد استراق بسمة نورك، واختلاس سمع لآهٍ من صدرك بعد إطفاء نور غرفتك.

سارة: هل أكون مدينتك؟ أرى تداخلا في الحديث عني وعنها.

محمد: بالطبع حبيبتي. العالم نقطة حب واحدة في قلبي. كيف يأتيني الظمأ إلى الشرب من نبع حبك، وأقتطع من خيالي ونَفَسي ما أرسله لك مكالمة أو شوقا أو رسالة أو تذكارا؟ كيف أعود لجمال اكتشاف شيء برفقتك حتى تشاركيني خوضه وإحساسه ووجوده. لا زال نقش حَرْفَيْ اسمَيْنا في جذع شجرة من حديقة من مدينة، هو أثرنا الذي وشمنا به الطبيعة، تاريخنا الثقافي داخل التاريخ الطبيعي. ربما أردنا أن نبحث عن وضع أكثر طبيعية، فهل نجحنا في ذلك؟ أتذكر كيف أخفينا على حارس الحديقة فعلتنا حتى لا يقاضينا بأمانته. كان حلمي الذي أيقظني في الثالثة صباحا، جعلني ألتمس ذريعة لإيقاظك. كيف رسمتُ ألوانه بزهوره، وأشجاره باخضرارها وشكل حرفي اسمينا بخطهما. جلتُ الحدائق كلها واخترتُ المكان والزمان والرحلة. كانت بداية زواج صعبة. تحسستُ الفراغ الذي يصيب النفس في لحظات فيضعف ارتباطها هكذا. لمستُ العذر لكل من انفصل. لكنني في نفس الآن اختبرتُ قيمة الحب في

قلبينا. وراء ابتساماتنا الظاهرة لا نعلم درجات المجاملة من درجات صدق المشاعر. لم نكن قد أنجبنا أولادا بعدُ. أليست حماقة اللجوء إلى جذع شجرة بسيطة هادئة في زاوية من حديقة؟ أستغرب لزخم الثقافات والمعتقدات والقيم والتقاليد والمعاشرة اليومية المشتركة، ومع كل ذلك مثلما هو قاع المحيط الهادىء، توقيع الطبيعة. ربما هو بحث عن صفاء. إخلاص خالص.

سارة: ألمس جرحا في تشبيهك وإعادة رسمك لجذع الشجرة. أتُرى، هناك لحظات تردد فيما مضى؟ أيكون بحثك عن مدينة خالدة أو قرية سيدة، مداواة لجرح ما؟ سأحتفظ بإجاباتي ورأيي حتى أسمعك. كأنني لأول مرة أكتشف أفكارك، أو إنك كنت تخبئها طوال العقدين ونصف من لقائنا وزواجنا.

محمد: سأجيب بخيال كتابتي، علَّه ينقذني من امتحان محاوِرَتي. ألم يكن الديك الفرانكفورتي قربانا للأرواح التي امتلكت القنطرة ومدينتها، فأرادت أضحية بأول العابرين لها؟ ألم يكن الديك هو الشهيد الذي أصبح رمزا و نائبا عنا في تجربة العدم والموت والفناء، لكي نعيش نحن ونخلد مع المدينة حتى اللحظة هاته؟ أليس الحب هنا جرحا مغروسا لأجل الخلود؟ ربما، بل أكيد في يقيني العقلي أن جرح الحب هو بحثه عن هذا الكمال وهذا الخلود. وما الكمال إلا لله تعالى. قريتي التي أحببتها، سارتي، نموذج في طفولتي وشبابي، حلم يتألق ويتحقق، لم أجده إلا في ذاتي وخيالي، أما الواقع فهو منفلت مني، أحاول الإمساك ببعض خيوطه كغريق يمتلك مجرد أمل في خيط هو غارق

معه. ما أملكه من كمال هو أمنيتي، هو جهدنا الذي نبذله معها. ما الكمال إلا حب يعاش رغم نواقص المحيط. فعل الكتابة عالم ساحر يجعلنا نقارن. وفي المقارنة تكون شباك الوقوع في شقاوة تفكير وآهات ولمس الفرق بين ما يجب أن يكون وما هو كائن. الكتابة مكبر رؤية يفضح الخلل في كل بنية وخلية. تفرز اللون الحقيقي عن المزيف. كما الحلم والأمنية تتعلق بهما آهات، كذلك الكتابة حسرات.

سارة: أي حسرات هي في كتابتك عن القرية؟

محمد: صعب عليَّ تلمسها وتبيانها. ربما هي قلق وجودي ممزوج بنوستالجيا وحنين. طفولة واستباق زمن الكبر في العمر. تعقد الحياة وانفلات اللحظات الجميلة ذكريات. الكتابة هذا الفعل والإحساس والشعور. هذا اللباس التقليدي الذي ترتدينه يجمع بين ثقافة العيش في مناخ يخرجك من يومي فرانكفورت الألمانية. حينما أناديك سارتي، ولاحظي وقع الاسم على وجداننا، وحينما أشاهدك بزيٍّ "منصورية مغربية" مثلا، أو لباس تقليدي تركي، تتداخل وقائع التاريخ والسياسة وأمنيات الذات في سعادة شعوبنا وتسامحها وتعايشها بحب وسلام.

سارة: لا تجعلني قضية تاريخية. أرجوك أن تحافظ على سارتك الطبيعية.

محمد: حاضر سيدتي. حوارنا هو الذي بلور سارة من الطبيعة إلى الثقافة. ربما بحثي عن القرية هو فك لشبكة خيوط متداخلة ومركبة في شخصيتي تأتي معها شخصيات الحكي التي عبرت وأسمعت أفكارها. أنا من نتاج هذا الكل المتداخل. الكتابة تساعدني على فك طلاسمه السحرية. مداد سريري لمعالجة النفس و تبسيط فهم الشخصية.

سارة: لماذا بدأت كتابتك بالشيخ السيد؟ أليس في المسألة ترتيب هرَمي مقصود؟

محمد: ربما.

***

بعد حوالي النصف ساعة من ممارسة المشي رويدا رويدا، جلسا على ضفاف نهر الماين الذي يعبُر المدينة من شرقها إلى غربها، فوق بساط نباتي أخضر بجانب ممر الراجلين المخصص لرياضة المشي والعدو.

. تُعجبني هذه الثقافة في المشي بضفاف النهر أكثر من المشي وسط أشجار ملتفة في أجماتها. علقت سارة مبتسمة، وهي تستند على ساعد زوجها سي محمد رغبة في الجلوس، بعد أن شعرت بحاجة ظهرها لاستواء واسترخاء.

. في الحقيقة، العدو والمشي وسط الأشجار مفيد في عمليات الاستنشاق والتنفس بالهواء الصحي الغني بالأكسجين الطري. رد عليها سي محمد، متابعا: أما بجانب ضفاف الأنهار أو الشواطئ، فالرطوبة تكون زائدة ومعرقلة للتنفس. لكنني أتفق معك في شيء آخر هنا، وهو هذا المنظر الجميل الذي يخترق به النهر المدينة، ويوزع بين ضفافه بهاء عمرانها. هذه الجسور الرابطة بين التاريخ والإنسان. تذكرني بالحاجة للعبور كل مرة. فهل الإنسان في رغبة للعبور في دواخله؟ ربما.

. دائما تتركني في حيرة مع كلمتك و لازمتك (ربما). ترى ماذا عساي أتابعه كجواب وكلام وتحليل عليها؟ كل مرة تخترق هذه الكلمة حقلا أجدني معلقة بموضوع دراسة. كم مرة رجعت إلى موسوعة أو كتاب أو شريط لكي أتابع ما يلِي كلمتك (ربما). سعيتَ في شقاوتي دائما. لكنها شقاوة حلوة. خصوصا حينما أعود لِما بدأناه كل مرة من نقاش وأضفنا ما اطلعتُ عليه. كانت وسيلتي لتبديل رأيي أو رأيك بأسلوب هادئ. (ربما)، لعبت دورا في تأجيل موجهات أنانيتينا الأنانية كل مرة، حتى تسقطنا في بر أمان موضوعي غالبا. ربما.

. ها أنت تستعملينها.

. بلوتني بها...(ربما)، **vielleicht**... **vielleicht** (ربما)....

. (أكيد) sicher.... sicher(أكيد)... ها هي اللعبة قد انقلبت أدوارها..

. إنما قل لي سي محمد...

. عفوا، أين ذهب، (محمدي)؟

. محمدي...

. نعم، كلّي لك....

. ألاحظ حنينا ممزوجا لمرحلة طفولة عندك.

. كيف؟

أولا: تمارس طقوسا جديدة، ولا تشرحها لي حتى تفاجئني بالقيام بها أمامي مبتسما لاهيا... الحمد لله على أنها ليست مراهقة متأخرة.

ثانيا: شراؤك للباخرة الكهربائية الصغيرة وإرسالك لها لوجهة سلمت قيادتها لمجرى النهر، بعد أن نزعت البطاريات عن آلة التحكم عن بعد فيها.

. لقد شاركتِني اللعبة... صحيح؟ وكتبتِ رسالتك الخاصة وجعلتها مع رسالتي في جوف الباخرة الكهربائية؟ إذا نحن الاثنين استمتعنا باللعبة. نحن الاثنين طفلان من أطفال الدنيا. أتساءل: ما الطفولة في شخص راشدين؟ ربما هي توقيع براءة نية ومبادئ، وصفاء إنساني داخلي نريده كسلوك في الحياة والمجتمع. ربما، هي دستور نريده سلاما و محبة و تآخيا بيننا نحن أجناس البشر. ربما.

تأوهت مع نسيم هواء دافئ بلورته أشعة الشمس التي أطلت من سحابة امتدت طولا وتقلصت عرضا فوق نهر الماين، كأنها مرآة السماء في النهر أو ظله الذي يحن ويشفق على صفحته السطحية. استرخت بعضلاتها متثائبة ومتكئة من جديد على كتف زوجها ورفيقها في صبحية الرياضة والاستجمام الفرنكفورتي، ثقافة المدينة بامتياز عالمي. ليت هذه الاشعة تحملني ببساط ضيائها إلى فوق السرير فأذهب في نومة عميقة دافئة.

. سأتوسل إليها إذا شئت وأعدها بقرابين لكي تلبي طلبك. هل لي برحلة فوق بساطها بجوارك؟

. أكيد محمدي... ممم.

بقي الكتف على كتفه متكئا، لكن رأسها في شبه تعلق مفاجئ صوب الأعلى، جاعلا مقابلة بينهما، ستكون الأعين هي المؤدية لأدوار التواصل مع الابتسامات قبل الكلام. استمالة عنق نوعا ما متعبة في هذه الوضعية جعلت الصوت له نبرة مبحوحة وخافتة، متدبدبة في الإرسال والوصول إلى مكان نزول وحيها وإلهامها ونفثها السحري. لكن في انتظار ابتعاد صوت باخرة سياحية من الجانب الآخر من ضفاف النهر، اخترق الحوارَ سؤالٌ آخر، كان يعلم بحدسه أن هناك سؤالا جديدا آتيا مغايرا لمجرى الكلام الذي بدأ شيقا وناجحا في هذه الجلسة، لكنه بقي متوجسا من فحواه، متسائلا عن مدى قدرته على النجاح معه كامتحان. يعلم أن الأنثى دائمة

الاختبار للرجل بأسئلتها واحتمالاتها وأحلامها الافتراضية التي يجب عليه أن يختار ما سيكون ملائما للواقع ولهواها كجواب. لحظة احتاج فيها لذكوريته لكي تساعده في الاستعداد لهذا السلاح الأنثوي بامتياز.

. قل لي محمدي....

. نعم، سارتي الفرنكفورتية... مم

. هل ستفسر لي الآن سر الباخرة الكهربائية والرسالتين المبعوثتين فيها؟

. إذا شئت ذلك. سأبدأ بعلاقتها بالرواية، ثم أستحضر معك أهمية الرسالة والمراسلة ودورهما في حياة الناس.

. الآن؟

. الآن أو حينما نعود إلى المنزل. أظن أن البدن يجب أن يبقى في فورة حركته الدموية. ما رأيك أن نترك الحديث عن الموضوع حتى نعود إلى المنزل؟

.كما تشاء. ربما أفضل. ربما تنفلت أفكار وأسئلة سأنساها حين العودة إلى المنزل .

. ربما... لنأخذ هذا الفضاء من نهر الماين وننقله إلى جلستنا داخل المنزل.

. أجمل ما سنقوم به يا صبيّ الصغير. أحلامك تكبر كثيرا.

عالم الألوان....

تعتز سارة بانتمائها لتراث الألوان التركية. تجعل لصلة الوصل مع انحدارها من أجدادها وعائلتها الكبرى عبر ألوان الفساتين التي تختارها من محلات الألبسة التركية. وكذلك من زركشات الزرابي الشرقية والمغربية. في حاسوبها صغير الحجم، الذي تضعه دائما بجانب ورشة الاشتغال، مقصها وأطراف الثياب التي تتفنن في اختيارها لأجل عمل الديكور الذي تقوم به كلما أرادت العيش في عالم الذوق والجمال الذي اختارته أوقات انشراحها، تجدُ مكتبة إلكترونية رتبتها لما جمعته من أشكال الديكور، والفساتين، وأردية وستائر النوافذ، وشكل زرابي وغيرها. حتى فوطة حمامها تريدها بلون أرجواني أو بنفسجي وكل ما مال إلى انفتاح وبهجة بصر.

خبرة سارة في عالم الألوان جعلت ابنتها سماح منخرطة هي الأخرى في ذوق الأم منذ الصغر. كان سي محمد كلما رآهما ابتسم وتأمل من فوق زجاجتي نظارتيه المشهدَ، وربما أخذ الكاميرا وصوّر بالصورة أو شريط

الفيديو لحظات انهماكهما في اختيار الألوان وتناسبها مع الفساتين أو ستائر الغرف والمنشفات والشراشيف... حتى دميات الطفولة التي أثثت غرفة سماح أخذت من سارة وقتا كبيرا للعمل عليها وتزيينها بأهداب مصقولة لامعة، وجعل تسميات لها مع دمياتها. حتى لعبة الألوان كانت دائرة أسرية يجلس لها الأربعة: سليم وسماح وسي محمد وسارة، كان فيها اختبار درجات الوصف والتناسق والمزج ونتيجة الخلط بين مكونات الألوان، إلى درجة أن سارة بعض الأيام كانت تتكلم بشبه هذيان عن الألوان. دوافعه ما قرأته لأحد الفلاسفة حولها. العالم مزيج ألوان. الصور نتيجة هذا المزج. اللون مرآة الخلق. لولا الألوان لما كانت هناك حياة. هذه جملها التي كانت تشهرها في وجه محاورها من أفراد الأسرة أو من المقربين في برامج الزيارات والاحتفالات.

داخل الصالون، بعد أخذها لحمام دافئ بعد جولة المشي التي تبعث الحياة في ساكنة مدينة فرانكفورت، تقدمت ببابوشها الوردي المنفوش السطح ببتلات وردية ناعمة الملمس، وطبعا نفس اللون في فوطتها التي على رأسها أو التي التحف بها جسدها... جففت ما تدلى من شعرها، ومسحت دوائر أذنيها، كما جففت يديها قبل أن تجعل كفيها في اختبار لستائرها التي تتدلى بجوانب شرفة الصالون االعريض. ملمس الستائر امتحان لها كل حين. أما تزال محافظة على نضارتها؟ أما زالت تموجاتها تعكس ما عشقته من تحولات لونية كشريط متدبدب جميل ينقله بحر الثياب في مده وجزره مع حركات

كفَّيْ سارة وعبرها. ملمس أنثوي بامتياز يدفع سي محمد أو سماح أو سليم إلى استفزاز غيرة مازحة في الحوار والتعليق الحميمي كل حين.

أشكال الأوركيدا هي الغالبة خلال هذه السنة على اختيارات سارة لستائر الصالون. في وقفتها وراء الباب الزجاجي للشرفة تستدير مع طيف الألوان المزهو بها هذا الفضاء، عالمها الوجداني الذي تنعم بامتلاكه عاطفيا، ما دام الحب رأسمال كل هذا العيش الأسري والزوجي والأمومي، و لعبة الألوان مستمرة دائما، والكل يعلم قانونها الفضائي داخل المنزل. ترتب كل شيء مع ابنتها سماح، وتجعل فستانيهما بألوان وردية وحمراء وقرمزية وبنسفجي فاتح. بكل ما تنعم به الورود والأزهار من ألوان زاهية ناصعة يانعة، ما عدا ألوان الستائر والزرابي ووسادات الأرائك، التي تأخذ شكل الحقول والبساتين التي ستنمو فيها الزهرتان أو الوردتان. تجد سي محمد يقسم أدوار التسمية بين سماح وسارة، بين وردة وزهرة. **mein blume**(وردتي أو **meine rose** (زهرتي)...

ينادي سي محمد سارته: عصير الليمون جاهز.

. شكرا... لذيذ جدا.

. بالصحة والعافية... يرد سي محمد.

. هل نتابع حوار الباخرة . الرسالة، أم نؤجله؟

. كما تشائين.

. تدعوني سماح دائما إلى أن أكتب لها رسالة أسبوعيا، رغم أنني أهاتفها كل حين... لا أدري إن كانت عَدواك الجميلة في المراسلات أم هي مسألة نفسية تحتاج إلى تحليل؟

. الاثنان معا. ما يخص المسألة النفسية، كيف تفسرينها؟

. ها أنت تطرح سؤالا على سؤالي. لكن ما دامت حلوتنا الصغيرة سماح فالأمر يحتاج فعلا إلى تعمق جديد...ربما هو فراغ عاطفي في مرحلتها العمرية. فهي في بداية العشرينيات، منشغلة مع الدراسة والتكوين والعمل. أراها منهمكة في كل هذا وتؤجل مسألة حياتها العاطفية. في الحقيقة يصعب عيلنا التفكير مع العجز عن إيجاد حلول. بين ثقافتنا الإسلامية وثقافة الحياة الغربية، أجدني مثلها في مرحلتها العمرية.ط. لكنني أميل إلى هامش من الحرية على هذا الجيل أن يعيشه. أستنتج ذلك من مراسلاتي مع سماح. هناك قوة كبيرة تحتاج إلى تنفيس ضغط عنده، لابد له أن يعيش ببساطة تفكير يميل إليها كجيل. نحن كجيل ربما تحملنا أكثر من اللازم من مسؤوليات. مسؤولية تاريخ حضارة وأمة... مسؤولية البلد الأصلي... مسؤولية نكبات إنسانية ومنها فلسطين... أقرأ لتاريخ الإسلام في عهد الخلافة بعد وفاة النبي وأجدني أتحسر وأقلق، كأنني أنا المسؤولة عن عدم ذهاب الأمور بطريقة ليس فيها سنة وشيعة. كلها حروب بين المسلمين.

واقع أنتجته أحداث التاريخ، نعيشه في القرن العشرين والواحد والعشرين... جيل سماح يريد بساطة عيش. يحن إلى ابتسامة يريدها خالدة. صراعات السياسة والإيدولوجيا كبيرة، لا يؤمن بها. ربما استقرار الحياة في المجتمعات الغربية وألمانيا اليوم، يبرر لهم عدم الخوض في أمور مثل ما عشناها و تفاعلنا معها. شباب اليوم ليس مسؤولا. هناك سبب في جهة ما، من طرف ما. علينا البحث والمحاسبة والمحاكمة. هذا ما يدعو إليه.

أما سماح، فأراها فراشة قد تشرنقت، لابد لها من حبيب، زوج، يلتقيان في كل ميولهما تقريبا. طموحات كبيرة تريد هي أن تجربها، سواء رسبت فيها أو نجحت. و لا تريد أن تندم على عدم تجربتها. فالحياة كما ترسمها في مراسلاتها والتي لا تعبر عنها في حوارات الهاتف، تجربة تعاش. فقط. ربما المسؤولية لم تنغرس بعد عندها. حينما ستصبح في عمل رسمي وفي مسؤولية ربة أسرة وأم، حينها، ربما ستتغير فلسفتها. لكن، الآن، هي مع أفكار تناسب مرحلتها.

. ألمس ذلك معك. أراه من زاوية تعلقنا بزيارة المغرب وتركيا. في حنيننا لقرى نائية، بالنسبة لسليم وسماح، مجرد سياحة وتواصل اجتماعي إنساني ظريف. إنما ذلك الارتباط بالجذور الموجود في قلبينا أنا وسارتي، لا نجده قويا عندهما. أرى المسألة من جانب هوية. فما وقع لدولٍ من تمزقات بسبب صراع الهوية، يفسر لماذا شباب اليوم يبتعد عن هذه الأمور. ربما

المسألة معقدة أكثر اليوم. أظنني لم أشرح الفكرة كما يجب، لكن، ساعديني على بيانها وربطها بموضوعنا.

. المراسلات. هي قائمة بيني وبين سماحي. لكن هذا لا ينسيني التساؤل عن محمدي. لكن قبل ذلك، اعذريني أغير فوطاتي بملابس جافة. شعرت بارتعاش لبرودتها.

تأمل سي محمد اللوحة المعلقة في الجدار. خلفية وردية مكثفة ببتلات قرمزية وصفراء. تتوزع بينها أوراق شجرية رقيقة خضراء فاتحة، كأنها أوراق صفصاف مطرزة لهذه الاحتفالية بالألوان. ابتسم لتغذية بصره التي قام بها مع اللوحة. لا يدري كيف أوحت له بعالم سارة المليء بالأفكار المتجاورة والجميلة والمرتبة كأنها مواد مطبخية ستخضع بالتناوب لعمليات منظمة تنتج وصفة أو أكلة أو عصيرا أو حلوة... داعب خياله بما مر كلمح البصر من تداعيات التفاعل بين الألوان والخيال، وفي نفس الآن كان هناك تركيز داخلي ذاتي يمتد تاريخيا حول سؤال ما المراسلات؟ ما أهميتها الأدبية والتاريخية والثقافية؟ ما رمزيتها التي وظفها في الباخرة الكهربائية التي أعطى لها حرية الانطلاق عبر نهر الماين؟ ما رمزية توظيفها في روايته الصغيرة قرية ابن السيد؟ هذه الرواية التي قام بها استحضارا لروح جده الذي أبهره تاريخه الروحي والتعبدي في لحظات كان سي محمد محتاجا فيها لتغذية هويته الدينية والثقافية، وتجديد روابطه مع تعاليم الدين، وكذا تفكيك أسرار ارتباط

مجتمعه المغربي بمجموعة من العادات وسكوته عن أخرى دون التخلي عنها. هو يعلم أنه حنين أو نوستالجيا تدعوانه إلى هذا الاشتغال. لكن اكتشافه بأن المراسلة لعبت دورا في مد الجسور وحركة المقاومة، واحتواؤها على معلومات تاريخية وأساليب تعبير أدبية راقية، كل هذا جعله يهتم بتوظيف اكتشافه الجديد في لعبة حياة، مثلما أَلِفه مع أفراد أسرته في اللعب بالألوان، أو اللعب مع سليم في مراحل طفولته كرة القدم وإشراكه لسارة وسماح فيها بشكل عفوي يختلط فيه استعمال اليد والرجل، الصراخ والضحك، الإحكام والانفلات في حركات ضرب الكرة. حريةٌ لَمَسَ معها أن العفوية تعلم تجاوز أخطائنا الصغيرة في الحياة، وعدم تنكيد مناخ الحياة الأسرية بكثرة اللوم أو الملل. هي ثروة وتغذية وجدانية رآها في إشراك الآخرين الأحلام والتمتع معهم بتجريبها وتوظيفها.

. وجبة شهية الآن... تفاح ويوغورت بنكهة الفنيلا.

. شكرا سارتي... أنا الآن مستعد لتقاسم سر المراسلات التي سكنتني في الكتابة حتى هذه اللحظة.

. جميل جدا. وأنا مستعدة كتلميذة نجيبة لمتابعة سر سرك الجميل.

. تتذكرين يوم ذهبنا لمشاهدة فيلم كيفن كوسترنير، ساعي البريد **the postman**، **kevin costner** ، الفيلم الذي نال جائزة أسوأ إخراج تلك السنة؟!

. نعم، كان فيلما طويلا ومكثفا بالدلالات. هي سبب ابتعاد الجوائز منه.

. صحيح... في رأيي هو أحسن فيلم شاهدته تلك السنة. أولا، كانت أحداث البوسنة والهيرتزك وانقسام يوغوسلافيا وقيام تلك الإبادة والحروب الأهلية الدموية الوحشية... ثانيا، كانت الحركات المتطرفة باسم اللغة والعرق والجنس التي أخذت تتغذى سواء داخل المغرب وخارجه... لقد لاحظت في تلك الفترة حالة الانكسار التي كنت فيها. كشظايا مرايا فقدت بريقها وبهاءها. كأجزاء قمر سقط من عليائه، وتوارى عن دوره البهي والفضي والإشعاعي. حيث لا دليل يساعد به ولا دور كوني عنده. لا زلت مسجلا مذكرات تلك المرحلة التي وجدتها قاسية على وجداني. رغم تسلحي بالإيمان. ورغم تعاملي المحاصر للمسألة حتى لا تؤثر على حياتي الأسرية والمهنية. رغم كل ذلك، كنت الإنسان الذي ينتمي إلى الإنسانية. الإنسان الذي يشترك مع الآخرين في الحياة فوق هذه الأرض. جمعت فراشة الإيمان ولحفت بها قلبي، وفتحت لوحة الحياة البشرية الطبيعية حتى يدخلها الكل ويعيشها طبيعة مشتركة. يومها اكتشفت أننا نلعب بنار وبوقود هذه النار. يمتلك الإنسان وسائل الدمار ويغامر بالتلويح بها كل حين، ولا يعلم خطورة رجعها على ذاته. وجدته أعمى في رؤيته للوجود. يرمي بأنفه لأجل الرائحة الأولى التي يريد أن يلتهمها فريسة وينسى تهلكته في هاوية ما رمى نفسه فيه. حين مشاهدتي الفيلم، انفطر قلبي. وجدت له تعبيرا فيما بعد في أبيات شعرية التقطتها في إحدى قراءاتي لشعر المتنبي. أظن لا زلت

مسجلا الصفحة برابط خيطي في ديوانه في المكتبة. انتظري لحظة سآتي بالديوان.

أخذت سارة تفاحة من فوق الطبق. دحرجت السكين حول قشرتها منقية لها من شوائب غير مرئية. جزأتها أطرافا صغيرة. وضعتها في صحن صغير مقعر. سكبت عليها بواسطة ملعقة صغيرة اليوغورت الفانيلي المركب بأطراف اللوز المقرمش. مزجت كل ذلك بعناية هادئة. لما عاد محمديها، باغتته بملعقة المزيج في فمه، تناولها كطفل صغير مستعملا شفتيه في التقاط محمولها، بينما يداه مشغولتان بالكتاب والصفحة المعلَّمة بداخله. بعد أن انتهى من استلذاذ ما أكله بادر إلى قراءة الأبيات التي سكنت روحه قبل الكتاب أو الديوان الموجودة فيه:

أدرن عيونا حائرات كأنها مركبة أحداقها فوق زئبق
كأن جفوني على مقلتي ثياب شققن على ثاكل
إن خير الدموع عونا لدمع بعثته رعاية فاستهلا
تلج دموعي بالجفون كأنما جفوني لعيني كل باكية خد

هذه أبيات متفرقة للمتنبي. لما قرأت شرحها وتفسيرها زادت توغلا في شجون وسجون نفسيتي المكلومة بآلام الإنسانية المتهورة.

. تعلم أنني أحتاج منك إلى شرح هذه الأبيات. إنما وقع الدموع واضح في التعبير عن بكاء وأسف وألم. ما علينا يا عاشق المتنبي. كنت تتحدث عن الفيلم، وها أنت تعود إلى العهد العباسي. قافزا حتى على العهد العثماني... ههه

. ما أثار إعجابي في الفيلم، العنوان أولا. دور ساعي البريد في إحياء حركة حياة وبعث أمة من رماد و كام حروب مدمرة. تخزين الرسائل لأفكار تعتبر نبراس نور ومستقبلا مشرقا جديدا. ما التقطته من الفيلم عبر عنه الواقع في دواخلي وأنا أستحضر الحروب الأهلية القائمة. ها هي أمريكا تربي أجيالها على التماسك، بينما الواقع الدولي في تمزق. كيف يزيد البلهاء في تدمير أنفسهم، بينما لم يستفيدوا من أن قوة الأمم في تنوعها وغناها الثقافي والحياتي العام. لقد كانت المراسلات دائما جسرا كلاميا يمهد لجسور التلاقي بين القلوب والشعوب، حيث إن أفكار الإنسان هي التي تسافر بينما يبقى هو في مكانه، فتنوب عنه في خلق التفاعل والحياة الجديدة. حتى الباخرة الكهربائية، استوحيتها من فيلم لنفس الممثل كيفن كوستنر.

. ماذا ستكون هذه؟

. فيلم رسالة في قنينة message in a bottle، هو كذلك من روائع السينما المليئة بقيم إنسانية تحترم الفرد نزعته نحو كمال نسبي ذاتي، ولو كان على حساب رغد عيش... إنما ما أثارني هو محاولة الإنسان دائما

الاستجداء بالغيب عله يساعده على حلِّ ما تعقد في الحياة. محاولة الروح اختراق المجهول. ها هي الرسالة تعطي بديلا، لا تشاور، تحاول أن تداوي جراحا وهي تعلم أن العملية قيصرية وصعبة وأليمة كذلك بدرجة ألم الجرح الغائر في دواخلنا. يذهب الحدث وتُنسى المشاعر ربما، لكن الرسالة التي تختزنه وتدونه، تتركه خالدا.

. طيب، لقد اتفقنا على ترك مدة زمنية قبل أن نناقش فحوى الرسالة التي كتبها كل واحد منا على حدة. أظن حان الوقت لكي نفتح تلك الرسائل في قلوبنا الآن ونقرأها فوق صفحات بوحنا. تلك كانت فكرتي. ما دمت قد اقترحت كتابة رسالة تعبُر الماين وتذهب لقدر جديد. كان لابد لي أن أوقع إمضائي على فكرتك. ما دام سرها لم تتبين خيوطه الأولى حتى هذه اللحظات فقط، فقد أضفت ما يجعل السر أقوى. ربما هو قفل صندوق البريد الذي جعلناه قفلين بمفتاحين، واحد معك، وواحد معي.

. ما فحوى رسالتك سارتي؟

. لعبة جديدة أظن. ما فحوى رسالتك محمدي؟ طيب لنجعلها قرعة جميلة.

. أتذكر الآن معك فيلم (رسالة في زجاجة). طبعا شاهدناه معا أكثر من مرتين أظن. وشاهدته في لحظات فردية حوالي الثلاث مرات. حينما يكون الإنتاج تحفة فنية تجتمع فيها المشاهد مع الموسيقى مع العالم المصور والقصة

المركبة المثيرة، يكون فعلا تحفة فنية تعشق رؤيتها كل حين. لكنني أتذكر آخر مرة شاهدته فيها، نقلني التساؤل حول هذا التعلق بالبحر، إلى تشبيه كبير بين أمل التائه في صحراء أو مياه محيطات، في بحث عن واحة أو شاطئ أمان، وبين نفس الإنسان المتعلق بروح ما، بحب ما. كيف يصبح العشق هياما متوهما، متخيلا لدرجة العيش فيما رغبه متصورا له بخياله، صانعا لعالمه داخل نفسه، متفاعلا مع كل ذلك بمشاعره، بالفرح والبكاء والحنين والاشتهاء.

أرى أن السراب لصيق بهذا الإنسان، سواء كان ذلك داخل صحراء أو بحر أو داخل نفسه. كيف يجعل البحر رسولا بينه وبين الآخر؟ كأنه تعلق وجودي بمكونات الطبيعة في حركتها وعلاقاتها. هذا الإنسان يستعين بالريح وبحركة المياه، يستنجد بالمجهول هروبا من لحظات ضعفه. إنه الأمل، الأمل. إنما، ما حضر بذهني هذه الأيام، وأنا جالسة أمام الحاسوب، متفاعلة مع شبكة الانترنيت، هو هذا التحول المرتبط بالأمل في الغيب والغائب والمجهول. هذا التحول من العالم الواقعي إلى العالم الافتراضي.

استشعرت محاولة الإنسان القبض على خيوط سراب حتى لا يعود سرابا. محاولة إمساكه بتلابيب اللوحة المرسومة في الأفق حتى لا تنفلت الصورة، وحتى تخترق المجهول إلى معلوم، الافتراضي إلى واقعي. هل يمكن أن يتحقق كل هذا؟ هل أصبحنا نعيش على تحديات تحويل الخيال العلمي إلى ممكن

موضوعي؟ كيف أصبح عالم الأنترنيت هو الحبر وهو المحيط الجديدين، أو هو صحراء التيه التي نعبرُها بعطش روحي ونفسي وعقلي، معنوي عام؟ ها نحن ننتظر أفق الرسالة مع الباخرة الكهربائية. ها نحن خلقنا لُعبتنا الوجودية. شاركنا في صناعة القدر الآتي. عدّدنا أوراقه واحتمالاته.

كان التوقيع للرسالة التي كتبتها بعنواني الإلكتروني. من يا ترى توصل بالرسالة؟ هل أعجبه محتواها؟ هل سينتقل للتواصل وخلق جسور عبرها؟ هل سيقوم بنفس المهمة التي طلبتها منه في آخر الرسالة؟ أن يجعل هو الآخر رسالة ويبعثها من نهر الماين أو مع موج البحر؟ منذ مشاركتي اللعبة النهرية، فتحت أشكال تفكير جديدة، حاورت حياتي الذهنية اليومية. كلما فتحت الحاسوب، أصبح بحثي عن رسالة متعلقة بصدفة الماين. أصبح بحثي كذلك عن انشغالات الأشخاص الافتراضيين بنفس اللعبة في أماكن ومواقع أخرى.

تقوم سارة من جلستها فوق الأريكة، مرتجفة الكتفين، منملة المسام، مرتعشة الذراعين:

ـ أظن أنه هواء بارد ينفذ من الشرفة... سأعمل على غلق نافذته.

خلال ذلك، استرخى سي محمد مادّاً رجيله بطول جسده متثائبا، فوق الأريكة، سارقا مساحة الدفء التي بقيت فوق جلسة سارة الناهضة للشرفة.

. أحلى تمدد في الكون، هذا الذي يخلقه الحديث على الأريكة. ما فاز إلا النوم.

. فتحتَ مدّ أمواجِ محيط وأردتَ سحْبَ شطآن رمالك للسكون وعدم التبلل. ههه ما يزال حوارنا وسؤالنا قائما. إنما سآتيك بغطاء خفيف مدفئ أيها الطفل المدلل.

. شكرا لكِ سيدة العطف والحنان.

أجابها في انتظار هذه اللمسة الأمومية، مغمضا جفنيه في استراقة راحة بصرية تفتح عالم الدواخل الذي لم يستجب لملتمسه في النوم، بل أغلق عنهما شعاع الشرفة المخترق للصالون لكي يفتح شموسا وضاءة تتناوب على تفكيره ووعيه.

وذهب الذهن في التحليل لِما سمع ولِما يروج في هذه الدواخل، دواخله... كان ما طرحته سارة كذلك، باباً آخر لفلسفة المراسلات التي فتحتها في المناقشة. ربما كان جوابها أو أجوبتها على تساؤلاتها من ذاتها هي قبل

أجوبتي الذاتية. إنما الرابط الذي جعل هذا الفضاء من الخيوط المتدلية كأنها ملوحات نورانية لكل أشكال الوحي المعرفي والحياتي، ينسج هذا البساط المزخرف من صور التراسل والتواصل والتفاعل الآدمي عبر التاريخ، هذا الرابط يجعل المسؤولية على عاتقي الآن، فيما أحاول توظيفه كرسالة مع هذه الرسالات. كيف أوضح هذا المشروع الذي كبُر بتشبيهاته؟ بأفلامه وأمثلته؟ بعدد الأفراد المشاركين في لعبته؟ هل هذا المشروع سرٌّ، ما كتمته منه لحدِّ الآن؟ هل من حقي عدم البوح بجوهر اللعبة وكنهِ قانونها وهدفها؟ أنا كذلك، جعلت عنواني الإلكتروني. أنا كذلك جعلت رسالة خاصة على متن الباخرة الإلكترونية. أنا كذلك وقّعتُها بعنواني الإلكتروني الذي بدأ يتلقى أجوبة دالّة على تسلم الرسالة من طرف أشخاص آخرين. رغم قِلتهم وعدم تجاوزهم الخمسة، فإنهم تفاعلوا مع الفكرة والرسالة، و واصلوا السفر على متن الباخرة الكهربائية الصغيرة، على متن رسالاتها الحاملة والحالمة والمشاركة في هذا الهوس التواصلي الجديد.

لماذا لم أخبر سارة لحد الآن بهذا الجديد؟ ولماذا لم تتلقّ هي رسائل موازية؟ هو ملف جديد لحياة مفترضة جديدة، لحلم المراسلات، انتظر تراكم مادته قبل أن أعاين صياغة نضجه ورشده وتحقيق أهدافه. هو صبي صغير لا يزال الخوف قائما حول ما يمكن أن يهدده ويعرقله. المراسلة الإلكترونية الرابعة التي تلقيتها باسم (قافلة التسامح) والتي جعلتها شعارا لهذه الرحلة المنطلقة من نهر الماين . وها أنا أبوح بعنوانها الآن . استنفرت قواي

ومشاعري، ازدادت معها نبضات قلب خائف على صغيره من التيه والضياع والحرمان. اضطرتني كالأبله إلى الركض والهرولة والمشي والترقب لضفاف الماين، علّني ألاحظ رُسُوًّا لسفينة في مكان ما. كان فحواها نصف اهتمام بالمشروع ونصف مبالاة... رست معه السفينة بمرفأٍ هجره الملاحون والمسافرون... قلب محطم من كل تواصل وعطف، يعاني من عزلة حياة اجتماعية، يعيش يومه مع صوت المياه الذي يصنعه تداول الناعورة الاصطناعية التي تزين وتؤثث فضاء الحديقة المحتضنة والمعانقة لضفاف نهر الماين على طول الخمس مائة متر، الجامعة لضفتي القناة كعاشقين يصنعان حياة وحركة للنهر في تلاقيهما عبر جسر المحبة الذي زخرف بأنواع الورود وتحف التماثيل الصغيرة البهية البياض المرمري الرمادي اللامع. أتساءل كيف يكون هذا الفرد مواظبا على زيارة الحديقة يوميا وهو يعيش هذه التعاسة النفسية التي عبر عنها في رسالته الإلكترونية. على الأقل سمح للباخرة بالاستمرار في رحلتها مع اتجاه الريح الجديد الذي حملها ذات صباح أو ذات مساء إلى وجهة ما. وعلى الأقل أنني أعلم أن الباخرة لا تزال في استكشافها لقلوب داخل مدينة فرانكفورت لم ترحل عنها بعد.

ما تزال لعبتي بجواري في مدينة التواصل العالمية بمدرستها المشهورة أكاديميا في التواصل: مدرسة فرانكفورت. لم أُردْ أن أنقل لساريتي التهديدات المعرقلة للمشروع. كنت الربان الذي أخفى خبر العاصفة المحتملة على ركاب سفينته، حتى لا يقطع متعة تنعمهم بأجواء سفرهم البحري الليلي والنهاري.

كنت الربان الذي استنفر مراكز الأخبار بأحوال الطقس واتجاهات الرياح ومسالك التباعد مع جيش العاصفة البحرية التي اشتد وطيسها بين أمواج عاتية بأصواتها المدفعية المتضاربة، وصواريخ رعد برقية جو ـ أرض، تكهرب وغى الضباب الكثيف المدلهم الذي عمّ وهاج وسارع في زحفه على مساره العبثي. والويل لمن تحداه من الكائنات البرمائية. كيف أُجنب الركاب مهاوله وأقودهم في رحلة أمان إلى شاطىء أمان؟

ذلك كان من أسراري التي لم أبُحْ بها بعد إلى سارتي. ربما حتى تمر العاصفة، خوفا من الآتي منها... ربما أنانيتي في إخفاء لعبتي، و تركها سرا لي وحدي فوق شجرة، داخل أجمة غابة، عالية، بنيتُ فوق أغصانها الصلبة بيتا خشبيا بسُلَّمٍ من حبال، وقصري الذي أفر له بعالمي وخيالي ولعبتي... وأي سعادة تمتلكني بامتلاكه، بحواري الذاتي معه، بتسميته وأدواره، وتسييري له، كأنني صانعٌ كونا جديدا، أنا مالكُه. وتلك لعبتي الخارجة عن حكم القيم وحدود المعقول. هي لي... فعلا، كان حدس سارتي صائبا في تخمينها وجود أسرار مع روايتي... وكيف لا يستطيع الواحد منا أن يشكل عالما داخليا بأسرار، ما دام يفكر ويحلم يوميا؟ هل أبوح لها بأسرار اللعبة؟ في الحقيقة، سأكون ظالما لصدقي بكتماني... وأنا أنتظر هذه اللمسة الأمومية والشاعرية، في لَمّ امتدادي وانتظار دفئي بالإزار أو الغطاء القطني الذي ستبسطه فوق صفحة هذا الجسد ـ المحيط، الهائم بأمواج أفكاره

وأحلامه وسفينته... ربما، هذه لحظة الكشف لجميع الأوراق في اللعبة وجعلها شفافة، ما دامت سارة قد أصبحت قائدة للرحلة فيها. وهل تلقت هي كذلك رسائل إلكترونية مرتبطة بالسفينة الكهربائية، أم ليس بعد؟ سأكون المبادر لإبداء التفاصيل.

أجواء المؤتمر

كانت الرحلة حلما رومانسيا يحمل في طياته سحبا ممطرة بالأفكار الرائعة. حملت هذا الحلمَ تلك العرباتُ التي تجرها خيول مدربة وواثقة من مسارها على وقع حوافرها المتراقصة مع الطريق الإسمنتي المؤدي من باب الفندق إلى باب قصر المؤتمرات، في عبور لشارع القادسية، فشارع محمد السادس، وصولا إلى فضاء قصر المؤتمرات ومحيطه.

السماء صافية في زرقتها، إلا ما كان من سحب متفرقة كأنها لمسة لوحة بخيوط بيضاء متناثرة ومتلاعبة في انسحابها من طلعة هذا النهار المشمس بمدينة السحر الأحمر، والتاركة لدورها في تأثيث الفضاء لقرص الشمس المشتعل الْتهابا في هذا التوقيت الساخن على الساعة الثانية والنصف بعد الزوال. كأنها تسجل حقيقة الحرارة التي تلهب الحياة بهذه المدينة، والتي لا تترجمها مكيفات الهواء داخل الفنادق الفاخرة أو قصر المؤتمرات هذا الذي يحتضن هذه الفعاليات. وتأبى البنايات إلا أن تسجل بصماتها بلونها المائل إلى الأحمر والباعث لدفء في البصر الهارب من ضغط أشعة الشمس، متجولا بين حمرة البنايات وخضرة سعف النخيل المرفرف والسامق الطول على جنبات الشوارع وداخل الواحات والحدائق. أخذت المدينة مع هذا

التشكيل تأشيرة الاعتراف العالمي ضمن كبريات المدن السياحية التي يحج إليها الناس من مختلف بقاع العالم. كأنها الجنة المفقودة داخل صحراء بدون واحات إلا ما كان من هذه العروس الجنوبية. كما حملت توقيع كبار الفنانين، اعترافا بجمالها و اعتناقا لسحرها وعبقها.

تجذبك الأقواس المرتبة في هندستها أو الأعمدة الحاملة لمدخل قصر المؤتمرات، بظلها الوفير والممتد ولوجا، والمنقذ من كل عبور عبر الشارع والأرصفة، كأنك في انتقال من تلال رملية حارة إلى كنف واحة تحميك من لهيب القرص المشتعل في الفضاء. تحميك بظلها ورطوبة هواء نخيلها وماء سواقيها.

هو ظمأ ينقلك إلى شوق وسعادة الارتواء بهذا الظل إذاً. يفتح لك خيال الحلم بملاحم الأمجاد القروسطية في عيش أطلال القصور الفخمة أو نموذج الرفاهية العدنية. هكذا كانت الابتسامات تتقوى على محيا سي محمد ومرافقيه في هذه العربة التي وقفت أمام باب قصر المؤتمرات بشارع محمد السادس العريض والطويل.

مجموعة من الصحافيين احتموا بظل الأعمدة في انتظار مرور وعبور المؤتمِرين، وفي التقاط صور لهم، وتغطية تلفزية مرافقة لأجواء الافتتاح.

اخترق وقع الحوافر، وصوت آلات التصوير، وكذا تلك الموسيقى الكلاسيكية التي انتشر صداها بهدوء على مدخل وممرات باب قصر

المؤتمرات، أصواتُ شعارات أثارت انتباه المدعوين قبل ولوجهم ظلال البناية.

عشرات الأشخاص يحملون لافتات ولوحات كرتونية تندد بالمشاركة الإسرائيلية في المؤتمر. أحزاب ونقابات ومنظمات من المجتمع المدني، وقَّعت بالخطوط العريضة احتجاجاتها وحضورها المعترض على الكيان الصهيوني:

. لا تسامح مع كيان عنصري.

. وضع الحمل بين أنياب الذئب جريمة بشعة.

. شعبٌ يباد و موائد تُقاد.

. نعم للتسامح لا للتطبيع...

صف طويل من رجال الأمن يطوق المتظاهرين ليجعلهم بمسافة بعيدة عن مدخل قصر المؤتمرات.

تناقضات بادية بين أجواء المؤتمر ومواقف المجتمع المدني والسياسي من المشاركين فيه. لقطات مصورة سجلت للحدثين، داعية إلى مزيد من التساؤل حول سبب الاحتجاج وموضوعه... حول القضية الفلسطينية ومصير شعبها... هي تساؤلات راجت في ذهن سي محمد خلف الابتسامة

التي حافظ عليها ثابتة أمام هذه المرايا العاكسة لواقع إنساني متناقض العيش والفعل والطموح والحلم.

. لا تسامح مع مجرم حرب.... إحدى الشعارات التي بقيت عيناه ملتقطة لها و هو داخل إلى بهو البناية الكبيرة المكيفة الهواء.

رغم حرارة أشعة الشمس، ارتعشت مسام جلد سي محمد بفعل الضغط النفسي الذي خلقه الموقف، وأحيا به شجون عقود من الصراع في منطقة الشرق الوسط. علق في تفكيره المباشر تلك اللحظة، التساؤل العريض: تُرى، كيف يمكن تناول هذا الإشكال داخل جلسات مؤتمر التسامح العالمي هذا؟

عبَرَتْ سحابة سوداء ذهنه، عالقة تحتمي من الشمس المحرقة لوضح النهار: هل سيتسامح رجال الأمن مع المتظاهرين، احتراما لحقهم في الاحتجاج والتعبير عن الرأي؟ أم إن ما عاينته خلال السبعينيات والثمانينيات من قمع للحريات واعتقالات يتكرر مع أجواء هذا المؤتمر؟ انسدل مشهد التساؤلات بفعل اقتحام التواصل بين المؤتمرين داخل قاعة المؤتمرات...

من بين مداخلات اليوم الأول للملتقى ما ضمنه في آلة التسجيل الصوتية الصغيرة التي حملها معه. ذلك أن محمد بن المصطفى يؤمن بأن نطق الكلمة دلالة إلى جانب دلالة لفظ الكلمة، سياق بنبرات خاصة. باحث كندي بحلة بوذية شرقية. دعوة إلى دين جديد لا يلغي الأديان، بل

يكون دستورها المشترك.ما أعطى الشرعية لفكرته هو سؤاله الذي كرره مع تجوال بصره حول حضور القاعة: ـ لماذا نحن مجتمعون هنا؟ لماذا التقينا الآن في هذه القاعة؟ ما القاسم المشترك الذي نبحث عنه؟ إنه دين جديد لا يلغي الأديان، لا يحارب المعتقدات الخاصة، بالعكس يحترمها كما يحترم الحرية الشخصية لكل منا. إنما لنا عالم واحد، حياة واحدة مشتركة بين الأفراد والشعوب هي التي جمعتنا في مدينة مراكش في بداية هذه الألفية الجديدة. الدين الجديد دستور مشترك، متوافق عليه. مصفاة عقولنا وقلوبنا، ضمائرنا ومشاعرنا. بنية هذا الدستور قيم عليا سامية خالصة. من منا يرفض: التسامح ـ التعايش ـ السلام ـ المحبة ـ العدالة... لاحظوا، هذه قيم عالمية تحتاج إلى تقديس أخلاقي وتوجيه تربوي سواء في كنيسة أو مسجد أو دير. في جامعة أو زاوية صوفية... هي ما نحتاجه: دستور جديد.لا تُسَموه دينا رفعا للحرج. هو إعلان عالمي جديد مثل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. وربما أفضل، مواكبةً للتطور الإنساني. أظن أن التربية على التسامح تحتاج لهذا الدستور الأخلاقي داخل مدارسنا من أجل أطفال اليوم والغد، من أجل الإنسانية. شكرا على تسامحكم وحسن استماعكم.

ابتسم محمد بن المصطفى حين معاودته سماع هذه المداخلة. أمام جهاز حاسوبه على الساعة الحادية عشرة ليلا، من شرفة غرفته المطلة على حديقة النخيل المجاورة للفندق، ساءل نفسه عما يمكن استثماره من هذه

المداخلة. تفكر رحلته إلى الهند والصين. نظير هذه الأفكار في فلسفات وطقوس آسيا... سر القوة الروحية في البوذية والطاوية وغيرهما... مدى التلاقي مع معتقداته الإسلامية، تريثه في الاستنتاج، لأنه يعلم أن العبارة قد لا تناسب الدلالة، أن الفكرة قد تكون صائبة، لكن أسلوب تصريفها هو الذي يحتاج إلى تبييء وملاءمة. كوصفة الطعام التي تحتاج إلى مقادير توابل مناسبة لذوق كل واحد منا. إنما هو غذاء غذاء، طعام طعام، توابل توابل. تذكر النبات الذي إذا قللت منه كان مفيدا في معالجة الإسهال، وإذا أكثرت منه تسبب في الإسهال. تشبيه عابر لم يرقه في الاستعمال الموضوعي. هي قيم واحدة إذاً، لكن ما العائق في تعميمها وعولمتها؟

كيف يستطيع الفكر الشرقي أن يمتلك هذه القوة الأخلاقية والروحية والحقائقية؟ لماذا تحضر فيه النتيجة وتغيب الوسيلة؟ أو تبقى هذه الوسيلة مجهولة حدسية تأملية غير واضحة و لا مفسرة كطقوس صلاة مبهمة؟ هل رغبة الإنسان في القفز على الحياة الفانية والخلود في عالم الكمال والحقيقة المطلقة؟

هل المعادلة هروب من الظلم إلى السماء الرحيمة أم محاربة الظلم وعودة إلى الأرض؟ بين المثال ـ السماء والواقع ـ الأرض، أي موضع لمعادلة نشر التسامح بمحاربة الظلم؟ ربما ليس هذا مدخلا مناسبا لاقتراح أفكار حول التربية على التسامح. إنما هي أفكار حاضرة مشتغلة في الذهن.

ربما هي سياسة التفكير التي تأخذ بعين الاعتبار سلطات إصدار القرار وتأثيرها على واقع حياة المجتمعات الإنسانية. ربما.

بحث إجرائي تلقائي على صفحات غوغل، قبل الخلود إلى النوم.اسمٌ وردَ كإحالة في المداخلة المسجلة التي عاود الإنصات لها هذه الليلة. رغم أنه سبق له التعرف عليه ودراسته والقراءة له، لكن هذه الليلة ربما هي قراءة جديدة من زاوية جديدة تحكمها ظروف ولحظة التفكير، سياقها bohm(*wholness and the implicate order*).

جعل نتيجة البحث بين الملفات المفضلة في الحاسوب حتى يعود إليها بتفصيل، ثم بحث عن اسم آخر(*comparative philosophy*)bahm.

حتى الغد إن شاء الله. هكذا نزع نظارتيه وأطفأ جهاز الحاسوب وتسلل داخل سريره وإزاره.

حوار الأجيال

. صباح الخير عمي محمد.

. صباح الخير سعيد. كيف الأحوال؟

. بخير الحمد لله. تفضل بالجلوس. قهوة أم شاي؟

. أحب براد الشاي حينما أكون في مراكش.

.كيف حال الأولاد، وسارة؟ بخير...؟

. بَلَّغتك تحياتها هذا الصباح عبر الهاتف. و أنت، ما جديدك؟ سمعت أنك مقبل على زواج.

. نعم، هو مشروع لم يكتمل بعد. بدايته عوائق اجتماعية وإدارية. لا أدري مسار حلها.

.كيف هي أحوال القرية؟

. في الحقيقة لم أزرها منذ سنتين أو أكثر.

. غريب، قريبة منك ولا تزورها.

. تصور أنه كلما ازدادت آفاق تفكيري في أمور جديدة، بعُدَت القرية مسافات. ربما أفر من علاقاتها الاجتماعية في بعض الأحيان.

.كيف؟ لا أفهم.

. تكريس قداسة الانتماء تثقل كاهلي كثيرا.أريد أن أكون إنسانا عاديا، لا يحمل عبء الشرف أو أسطورة الضريح.

. أكيد أن الناس يضخمون الأمور ويعوضون النقص والعجز بهذا التقديس وهذه الزيارة. ولكن، أظن أنها ليست عاصفة تمنعك من الذهاب للمكان والتصرف بما تراه مناسبا داخل العلاقات الاجتماعية للقرية. يحصل لنا الشرف في الانحدار من جد متصوف حكيم ومقاوم.

. أتفق معك. لكن، لا أريد خلط الأمور في حياتي اليومية. فبين شخصيتي وطريقة سلوكي والتنميط الذي تفرضه علي القرية، لا أطيق هذه الأمور.

. على العموم، لا بأس من الذهاب للترحم وزيارة العائلة بعض الأحيان. أما الانقطاع عن الزيارة، فربما يخلق غربة لا واعية تقلق الوجدان. وربما هذا شعوري أنا الذي أعيش بين قارتين، فيفكر في واحدة منها حينما يكون بعيدا عنها بشوق.

. ممكن، سأفكر في حكمتك يا عمي محمد. أرى بين يديك محفظة مؤتمر حول التسامح. هل تشارك في حواراته؟

. نعم، هذا المساء عندي مداخلة.

. جيد هذه الحملة للتسامح العالمي. وإن كنت أتحفظ على استعمالاته السياسية، ونفاق الأنظمة فيه. كيف نحققه في ثقافتنا وعلاقاتنا؟

. سنفكر في ذلك سويا إذا شئت.

. ستقحمني في مسؤوليات تغيير الكون؟

. لا، فقط في حياتك الشخصية ومحيطك. قل لي..

. نعم.

. كيف هو مشروع زواجك؟ ولماذا هذه العوائق؟

. إنها كندية. ويبدو أن عائلتنا الكبرى مواكبة للعولمة الآن.

ابتسم محمد لهذا التعليق منتظرا استمرار سعيد في الكلام.

. اسمها (كلير). تعارفنا عبر الأنترنيت، ثم التقينا هنا بمراكش. والآن، ننتظر ترتيب اللقاء والزواج والأوراق الإدارية...

. أية عوائق هي موجودة، سعيد؟

. إذا تم عقد الزواج، فمشكل القنصلية وموافقتها على الالتحاق بكندا . مونريال... ثم هناك رد فعل عائلي لا يحبذ فكرة الزواج من كندية.

. من طرف من؟

. من طرف الأب والجد. لا أدري كيفية إقناعهما وإرضائهما. الاختيار مسألة شخصية. ما العيب في أن تكون كندية غير مسلمة؟

. ربما يخافون على تربية الأولاد، أن تكون غير إسلامية... ربما يخافون على سعيد وعلى هويته الإسلامية العربية... على شخصيته...

. أية شخصية إسلامية يتحدثون عنها. وهل المغربي اليوم شخصيتُه إسلامية؟ ليس منا من يمتلك شخصية نموذجية محضة، هناك اتجاهات كثيرة تتجاذبه. سلوكات متناقضة تتقاذفه. يكفي أن تعاين واقع مراكش بين الأحياء الراقية والفقيرة، بين ليلها ونهارها، بين مساجدها وكباريهاتها...

. إذا كان الواقع متناقضا، فهل يجب أن نعكسه نحن؟

. لا طبعا. لكن، على الأقل، الادعاء بمثالية أمر غير مناسب. وهل يمكنني أن أكشف لك عن حقيقة سعيد وأفكاره وسلوكه؟ عندي قناعاتي الشخصية، كما عندي احترام لديني الاسلامي وثقافتي المغربية، ولكن، عندي انتقادات لسبل ممارستهما.

. طبعا، الواقع شيء والفكر شيء آخر. على العموم النقاش يحتاج إلى تعمق أكثر. دعنا مع سعيد الآن. كيف هي تجارتك؟ هل تحتاج إلى مساعدة؟

. لا شكرا الحمد لله. المشكل ليس ماديا بالأساس. أعاني من توترات فكرية وثقافية، رغم أن مراكش هي أبهج مكان في العالم، أحتاج إلى تجربة حياة جديدة. إضافة شيء جديد إلى جانب هذا القديم الذي أعيش فيه. حتى ثقافة المؤسسات الاجتماعية أصبحت توترني، لا أستطيع التأقلم مع عقليات معينة. ومجتمعنا يعرف تغيرات يجهل اختياراته فيها... طغت الماديات على الجميع... حتى مدونة الأسرة فهمها البعض معكوسة، فرصة للاغتناء عند بعضهن وأسرهن، وفرصة الانتقام عند آخرين، هناك خلط وتخلٍّ عن جوهر العلاقات الإنسانية. أظن أنكم مرتاحين في الثقافة الاجتماعية بألمانيا.

. نسبيا يا سعيد. نحتاج دائما إلى إعادة التكيف والتأقلم والحذر من صغريات الأمور حتى لا نقع في أخطاء تافهة، آثارها سيئة وكبيرة... وهذا مشكل اليومي عندنا.

. إنما قل لي سعيد، كيف ترى تربية أولادك بعد الزواج؟ لنفترض أنك ذهبت إلى كندا واستقررت هناك؟

. لم أفهم الغاية من السؤال. في أي إطار يأتي الحديث عن التربية؟
. تعلم يا سعيد أن المشكل الكبير للأسر المكونة من آباء مساكين في أوربا هو التضارب بين عقلياتهم وعقلية الحضارة الغربية، في الثقافة والأخلاق وموضوع الحرية الفردية والتربية الجنسية وحقوق الإنسان.

. ربما أفهم قصدك.أما تصوري لنوع التربية فلا أراه مكتملا الآن...

. غالب المشاكل التي تقع بين الزوجين بسبب التربية. ما لم يكن هناك وضوح في البداية فالمشاكل تقع كثيرة، والمهم هو تفهم موقع الأسرة، فهي متخوفة من الآتي. لا تنس أننا جيل عاش قبلكم، سبقكم تجربة، وهي ليست امتيازا، فقط خبرة سيعيشها جيلكم كذلك. نضعها أمامكم حتى تستفيدوا منها إن كانت فيها استفادة.

. هل تضعني أمام صورة الكونغرس الذي ينتظرني؟

. أي كونغرس؟

. أمزح فقط. هناك أبي و جدي الحاج عبد العزيز.

. أفهم الآن. لو استطاعوا ضمان تربية أولادك بثقافتك المغربية المناسبة لنفسيتك كأبٍ مستقبل، لذهبوا لكندا لخطبة زوجة مستقبلك.

. عظيم، ماذا لو قدمت ضمانات بقسم إداري، سنسافر جميعا لكندا هذا الأسبوع أظن؟ ساند تساؤله.

ضحك الإثنان للتعليق مع ضرب الكف على الكف، وعلق العم محمد:

. مستحيل أن يخلُوَ حوار مراكشي من البهجة و النكتة.

. تصور الحاج برزته في مونريال، وأبي بطاقيته المائلة وشكارته المتمايلة على جنبه

. إنما قل لي عمي: كيف نجحت علاقتك مع سارة؟

. الأمر مختلف. هي مسلمة أصلا. كما أنها تنتمي إلى أسرة وجيل انتقد تجربة تركيا في الانفتاح على الغرب، بالنظر إلى الآثار السلبية على المجتمع وليس للأخرى الإيجابية. مشكل الهوية في وسط غربي يخلق عند المهاجرين و الأقليات حنينا قويا. ربما ستعيشه بتجربتك الخاصة. أضف إلى ذلك أنني حين تعرفي على سارة كنت هناك بألمانيا، وزواجنا تم هناك خارج حضور العائلة، أما أنت فلا زلت تحت فضاء مراكش ورعاية الأسرة الكبيرة والصغيرة.

. ماذا عن مؤتمر التسامح؟ ربما تحتاجون إلى بركة جدي الشيخ السيد.

. أكيد. سيرته تشغل بالي. يمكنك أن تساعدني إذا توفرت بين يديك وثائق أو شهادات.

. بكل فرح، سيكون لي شرف المساهمة في موضوع مثل هذا. إنما ليست سيرة ضريح للزيارة، علق سعيد مبتسما.

. طبعا لا. هناك مرحلة مهمة مرتبطة بعهد جدنا الشيخ السيد، هي مرحلة المقاومة التي أطلق شرارتها بين جبال الأطلس. ثم هناك مراسلاته ومناجاته ودروسه التي تركها. ربما ابن الشاعر تكون عنده وثائق.

. سنرى. لكن، إذا سمحت عمي محمد،عندي تحفظات على تاريخ المقاومة الرسمي.

. القراءات مختلفة. إنما حدود الموضوعية تفرض تحديد إطار التحليل. أريد فقط دراسة تاريخ القرية وتواصلها مع حركة المقاومة. تعلم أن أسماء كثيرة زارتها.

. فرق يا عمي بين زيارة مقاومين للاستعمار ومقاومي اليوم، يزورونها لمقاومة الجن والخرافات...

ضحك العم مصطفى حتى بانت نواجذه، وعلق قائلا:

. أترك لك يا سعيد دراسة هذه الظواهر السوسيو ثقافية. أنا نتاج جيل المقاومة، وأنت نتاج جيل الأضرحة. ها ها ها. ما رأيك؟ سأله مع ابتسامة ضحكته العريضة.

. أكيد. وأشكركم على هدية القرن الواحد والعشرين التي قدمتموها لنا. لابد لنا أن نحاكم رمزيا جيلكم على كل هذا، عندي صديق سأوكل له هذه الدراسة السوسيولوجية. فهو باحث في هذه المواضيع.

ضحك الإثنان حتى ظن الجالسون بالجوار أن الأمر يتعلق بسماع نكتة مراكشية يرغب الكل في التعرف عليها. فالجل التفت منتبها ومبتسما، حتى نادل المقهى أتى مسرعا بكوبيْ ماء، عسى أن يسترق جديد البهجة والنكتة المراكشية.

. قل لي سعيد، هل من نكتة جديدة؟ وطبعا بدون تصنيف نجوم.

. صعب يا عمي أن تجد في مراكش فندقا جيدا بدون تصنيف نجوم، ما بالك بالنكتة الجيدة. إنما هذه واحدة: ابن تاجر الحي تلميذ بارع جدا في الحساب.كان تمرين المعلم: خمسة في خمسة كم تساوي؟ أجاب ستة وعشرون. سأله المعلم:كيف ذلك؟ هي خمسة وعشرون. قال له التلميذ: أستاذ ريال ماكاينش (غير موجود) كصرف في قمطر النقود.

. هذه نكتة جيدة...

. إليك الثانية: ضُبِط شخص يكتب على جدار، عن حاكم آسيوي مستبد: الحاكم حمار. اقتادوه للمحاكمة. كانت التهمة الموجهة إليه هي: إفشاء سر من أسرار الدولة.

. إليك ثالثة: . مراكشي، ذهب لخطبة فتاة لابنه، بعد أن أكثر الابن في توسله لأبيه. وهو منتظر نتيجة قدره وزواجه في المقهى، خرج الأب من

منزل أسرة الفتاة، سأله الابن: ما النتيجة يا أبي؟ أجابه: ماذا أقول لك يا ابني؟ إيييييييييه... بالكاد وافقوا على جعلها خطيبة لي وبصعوبة كبيرة.

. ماذا؟

. لقد أعجَبَتِ الفتاةُ الأبَ، فخطبها لنفسه.

. يا ترى، هل الأب والجد سيخطبان لك أم لنفسيهما؟

أذرفت الدموع من كثرة الضحك. تصاعدت ضحكاتهما، حتى إن الجميع من جديد جعل انتباهه لطاولتهما.

. تعلمْ! كنت مبرمجا مع بعض ضيوف لقاء التسامح زيارة (سبعة رجال) هذا الصباح. لكن الزيارة تأجلت، أحد ضيوفنا تناول الطنجية كوجبة بنهمٍ كبير،ما سبّب له في إسهال حاد. المسكين اعتذر بالمساء وطلب منا عدم حرمانه من زيارة معالم مراكش، فتسامحنا معه.

. الحمد لله أن الطنجية انتصرت للقائنا هذا الصباح.

. غدا سنقوم بالزيارة إذا شئت مرافقتَنا.

. أظن أنني لا أستطيع ذلك.عندي التزامات أخرى. في الحقيقة إذا كنت سأذهب معكم فيجب أن أزور جدي الشيخ السيد رحمه الله، هو الأول، في قبره. هو أولى بالزيارة.

. هذا اجتهاد جيد. سنحدد وقتا خلال الأسبوع المقبل لذلك، إذا شئت.

. حاضر يا عمي.أظن أنني لا أستطيع الإفلات من دعوة إلا لأقع في أخرى. بكل تسامح. أضاف مبتسما. ولكن، قل لي عمي: إلى أي درجة ستكون متسامحا معي في زواجي من كندية؟ لم تعطني رأيك.

. أحترم اختيارك، فقيمة الحب إذا نبتت في الوجدان أصبحت مقدسة. لذلك لا اعتراض عليها. فقط أن تجد ذاتك وجوهرها، والصدق مع خصائص شخصيتك. أظن أن تعميق مناقشات ثقافية وشخصية بينكما ستوضح قوة هذا الارتباط الذي ستُقْبِلان عليه. وإذا حصل، لا تنسَ عزمي على حفلك البهيج يا بهجاوي.

. أكيد عمي أنت الأول. كل الشرف لي.

. هل تابعتَ أصداء المؤتمر عبر وسائل الإعلام؟

. لا. لا ألتزم بمواعيد قنواتنا غالبا. اللهم صدفة ما. إنما شاهدت قصاصة قصيرة جدا تشير إلى بدء المؤتمر في جريدة وطنية...

. ألم يشيروا إلى وقفة احتجاجية معترضة على مشاركة إسرائيلية في المؤتمر؟

. لا إشارة بالمرة لما ذكرت. أظن أنكم ورّطتم أنفسكم في تناقضات السياسة والقيم... أي تسامح مع من أباد و شرد وقام بقتل جماعي، وميز عنصري

كبير تجاه شعب بأكمله!؟ لابد أن أقود لكم مسيرة طلابية حتى مكان مؤتمركم.

. فعلا لقد خلق الحدث في الاحتجاج نقاشا بين المؤتمرين حول أبعاد التسامح والمواقف السياسية من القضايا الإنسانية الكبرى.

. السياسة سقاية الجميع بحلو مائها ومعكره.

. صحيح !

لحظات صمت دامت تقريبا لدقيقة، ساحت معها الحواس مع فضاء المقهى والتلفاز والطاولات والزبائن... كذلك تصفح سي محمد لوثائق داخل محفظته. بينما تابع سعيد خلالها لقطات برنامج (أمودو) لكشف سحر الجنوب المغربي، رنَّ هاتفه المحمول... كان المتحدث (عمر بروخ) صديق سعيد وعضو في الجمعية المغربية لحقوق الإنسان. يعيش بمفرده بمدينة مراكش. أسرته مستقرة بمدينة الصويرة. لكنه بسبب مرض الربو، لا يستطيع العيش بجانب المدن الساحلية، فنسبة الرطوبة كبيرة، نصحه معها الأطباء منذ سنوات بالعيش بمدينة داخلية بعيدة عن البحر. و قد بقي هذا البحر حاضرا كمعشوق في كتاباته. كذلك في أشعاره التي تحتفل بالنوارس والأمواج وشباك الصيد وأسوار وألوان المدينة القديمة (موغادور). عمله كإداري بإعدادية للتعليم، عوَّده على الأناقة الدائمة والبذلة الموحدة وربطة العنق... وجه عامر الخدين، وعينان جاحظتان برموش كبيرة ملحوظة، يظن

الناظر أنه مستعمل لكحل مميز لهما. يتلقى دائما ذلك التعليق: تبارك الله عليك آ أبو العيون ! رغم البدلة العصرية، فهو دائما يحبذ الأحذية المستوية بدون طالون. أخذ الصلع من مقدمة رأسه، وبدأه البياض مبكرا لخصائص وراثية غالبا في فوديه وقذاله. كل ملمح يثير تعليقات طابع شخصية معين فيه: لِشِيبِك ستكون حكيمنا وخازن أسرارنا أيها القوي بأسماك الصويرة تغذيةً ونوارسها غناءً.

. ألو سي سعيد.

. تحية سي عمر، ما الذي جعلك تفتكرنا هذا اليوم؟ هل تعزمنا على وليمة اليوم؟ علق وتساءل مبستما.

. الوليمة الجديدة هي اعتقال ثلاثة طلبة وأمين الجمعية (المهدي بن العربي) أمام باب قصر المؤتمرات بشارع محمد السادس بمراكش. لنا لقاء في المساء لتدارس الوضع والاعتقال. إلى اللقاء.

يتوجه بالخطاب مبديا نوعا من الاستغراب إلى عمه سي محمد:

. هل تعلم بخبر اعتقال ثلاثة طلبة ومناضل جمعوي أمام باب قصر المؤتمرات؟

. لا، كيف وقع ذلك.

. أخبار الحياة السياسية والثقافية والنقابية والحقوقية، جلها حاضرة معنا في تواصلنا هنا بمراكش مدينة الأحلام والأعراس وأشياء أخرى... جلنا منخرط في العمل في إحدى هذه المجالات. ونسيجنا يرتق الأخبار ويخيطها بالمساء، بفضاءات جلساتنا، وعبر الهاتف كذلك.

. لكنني لم ألاحظ شيئا يدل على عنف أو تعسف خلال دخولي قاعة المؤتمرات. أستغرب لمؤتمر حول التسامح يسمح بعملية اعتقالات. لا يمكن الحديث عن قيمة التسامح دون استحضار قيم الحرية والسلم والحق في التعبير والاختلاف. وإلا سنكون مجرد ممثلين ومدّعين لهذا التسامح.

. بيت القصيد، كيف سينجح هذا التسامح من طرف من يضطهد ويتعسف على القانون والحريات؟

. في الحقيقة، يجب علينا في جلسة غد أن ننبه إلى ضرورة احترام الحريات كشرط لنجاح مؤتمر التسامح.

. أخاف أن يكون المؤتمر سياسة ترويجية فقط تغطي على سياسات دولية لا متسامحة وغير عادلة. أما ما وقع من اعتقالات، فهذا يبين أن البلد المنظم مجرد محطة برمجة لهذه السياسة الدولية. علق سعيد بنبرة تحولت من مناخ النكتة والمزاح إلى صرامة وأسى في الحديث وأخذ الأنفاس. لا زالت أجواء المحاكمة التي تعسفت على طالبة كادحة وحكمت عليها بسجن وضغطت عليها بحرب نفسية تذكر ب(دريفوس) في محنته، ملقية بثقلها على ضميرنا

المتعب بالصبر والعجز عن تغيير الأمور وإصلاح حال هذه الأمة ومؤسساتها.

جيل جديد

في سن الخامسة والعشرين، بشعر أسود وملامح وجه أدهم لفحته أشعة شمس مراكش. لباسه اليومي سروال جينز أو قطيفة، وأقمصة مزركشة اللون، مع جعل رزة صحراوية متماوجة الألوان بين بياض وزرقة وسواد خفيف، شالا حول عنقه، هي لحاف الطوراق في رحلة الوجود بين الرمال والصحاري المتباعدة الواحات والكائمةِ لأسرار الآبار والحياة. كأنه قيدُ الصحراء في الاحتماء من لفحات العواصف الرملية ومن احتراق بأشعة شمس مشتعلة، قدْ فُكَّت أغلاله من مدار العنق والرأس، لتترك للجسد والوجه فرصة الانطلاق لمعانقة لوحة الكون والفضاء داخل عالم مراكش الهاربة من جنوب القحط والقيظ والعطش بين فيافي الصحراء الكبرى وتيه القوافل بين كتبانها.

اعتاد جعل تسريحة شعره بطريقة هيبّية مرةً، وأخرى قريبة من تسريحة راستا ونجمها بوب مارلي. لكن مع مرور الوقت، عرف كيف يجعلها مهذبة غير متنافرة مع أبصار المجتمع المزركش الذي يعيش فيه بين معاصرة كاملة وأصالة عتيقة.

حاجباه متوسطا الكثافة يتماشيان مع لون عينيه و شفَرَاتهما. يناسبان امتداد خدين لا هما بالمعظمين أو بالغليظين المتدليين. يمتلئ الفك الأسفل ليجعل استدارة الوجه جاذبة للنظر برؤية شباب مكتمل في رجولته وقامته، رؤية تحتاج للتأهب في التواصل أمام سعيد، لكون الارتسامات تخفي الانشراح وقسمات الغضب، حتى شروعه في الكلام. وفي ذلك سر يزيد الشخصية قوة أمام المتكلم المحاور في التجارة أو في المعاملات العامة.

دكان تجارة في بدايته رغم الخبرة التي اكتسبها منذ صغره. لكنه رأسمال مرهون بدعم أبيه وجده. لم يشعر بالاستقرار الكامل مع هذا الوضع وهذا الحال. طموحاته أحلام رسمها في سن مراهقته وشبابه، لا يجد لها آفاقا في هذه الدروب التجارية المكتظة بالسلع والناس. كل مرة ينتظر نهاية النهار حتى يذهب إلى ساحات شاسعة وبعيدة لكي يسرح بعينيه إلى السماء ويجلس مع رفاق دربه الجامعي الذين بالكاد يشقون طريق المستقبل.

ما تعلمه من تجربته منذ صغره في التجارة أن الأفكار مثل رأس المال، ما لم تستثمر لا بد من أفكار جديدة مثمرة.

هكذا أفكاره الاشتراكية لم يجد لها موقعا في حياة المجتمع المراكشي. بالعكس، شرخ اجتماعي كبير كالذي يفرق قاع المحيط الأطلسي، عالم سندباد السحري بحفلاته الباهظة الثمن، وعالم فقر وتهميش وطوابير انتظار لحقوق في المستشفيات والإدارات...

أما عالم سعيد، فهو عالم شباب كسر الطابوهات، واخترق المقدسات، وجرب الممنوعات، إنما داخل عقلنة نظمتها الساحة الطلابية بثقافتها وأنساق مذهبياتها المتصارعة بين ذات اليمين وذات الشمال.

تحديات لم تمنع التهديدات وأساليب التخويف عن عالم سعيد من طرف الحركات المناهضة لأفكاره. ما يزال يتذكر يوم دخل في واضح النهار وتحت لهيب شمس لا تجد مثيلا لحرارتها إلا بمراكش، بمصباح مضيء يُلوّح به، بين ميمنة وميسرة، بين جماعات الطلبة الموزعة في ساحة الكلية وممراتها.

سأله طالب رفيق له في الدراسة:

. ما لك سعيد؟

. أحارب الظلام...

كادت مواجهة دامية أن تشتعل بين النقيضين بسببه، الرفاق والإخوان، لولا المحاضرات المهمة التي وزعتهم بين المدرجات.

ليست المرة الأولى التي يتحاور فيها مع عم أبيه أو عمه كما يحب أن يناديه. الجسور الاجتماعية لا تزال قائمة، خصوصا وأن محمد بن المصطفى، لم يكن بالشخصية المتعجرفة ولا المنغلقة، رغم فارق السن ورغم انشغاله بالدراسات الجامعية والبحث المعرفي.

هل ستكفي الساعتان لمناقشة موضوع سعيد؟ هل من حقه التدخل في موضوع شخصي لسعيد؟

هكذا طرح محمد بن المصطفى أسئلته على نفسه. المهم إذابة الخلاف وسوء التفاهم، حصول الإقناع لكل طرف بجميع الحلول المفترضة للموضوع وليس المشكل. فالأشخاص عقليات وثقافات. جبل من الرقابات والطابوهات الفردية والجماعية:

أحجار صماء كيف نكسر جمودها و نحرك حياة بدلها؟

صعبة هي قضايا البشر في المعالجة و البحث عن الحل.

متوسط الطول، بكتفين صغيرين يناسبان نحالة جسمه، وخفة حركته ومشيه. ملامح وجه مصغرة في عينين مستديرتين، وخدين محفورين، وشاربين صغيرين متحركين مع شفتيه حين الكلام، كأنك تتابع لغة أخرى لهما حين الانقباض أو الانشراح والانبساط. لا يسلم شكله من مزاح عصابة رفاقه: تدرس مجال جبال الأطلس وتنسى عيِّنَتَك. أنت نقلة نادرة تحتاج إلى التحليل في المختبرات. كل خلية فيك تعود إلى المغرب الحجري القديم. لعلك لم تولد بعد، ولن تموت أبدا. سنضعك في متحف محنطا بدل نعش قبرك. لا تخف، سنحافظ على هيأة ملابسك التي لا تتغير غالبا عندك.

. لا. أريد موديلا فاخرا من اللباس يليق بزيارة السائحين والباحثين.

. مثلا آ سي الحسين؟ يعلق سعيد مستغربا ومستفهما.

. موكس.MOXE.

. آه ! يا لك من بخيل لعين وطماع لئيم. وهل لبسنا نحن موكس في حياتنا حتى نجعله لك في مماتك؟ الحمد لله على الكفن، وحتى إذا لم تؤدِّ ثمنه، لا تخف سنأخذ من وقف أبي العباس السبتي كفنا لك.

يتعالى التذمر الساخر، وصخب الجماعة في لحظات ضحكٍ، كل مرة يتشكل فيها الإخراج الفكاهي لمثل هذه الصور.

هكذا هو الحسين غانم، رفيق درب سعيد في الأفكار والمناقشات. إنما طريق حياته اختلفت عن طريق حياة سعيد. الحسين تخصص في علم الاجتماع. تخرج من المدرسة العليا للأساتذة مباشرة بعد إنهاء الدراسة الجامعية بسنة واحدة فقط. تفوّقه في الترتيب العام جعله يستفيد من تعيين قريب من مراكش بأربعين كيلومترا تقريبا، هي طريق ضريح مولاي إبراهيم. سُخريته من قدر الأشياء تجعله يعلق مازحا في كل مرة:

. ما عرفنا ما نقوم به، هل نشد طريق مولاي إبراهيم أم طريق بول باسكون سوسيولوجي المغرب؟

كما استطاع متابعة دراسته بالماستر ونيل تشجيع أساتذته:

. يبدو أن مولاي إبراهيم تحالف مع بول باسكون ضدي. فبحثي الميداني كان وما يزال بين سفوح وقمم جبال مولاي إبراهيم ومحيطها.

لا يتوقف عن التعليق على مواضيع كثيرة مع إقحام ذاته وسطها وفيها. أما سعيد، فيقع في تعليقات الحسين دون أن يستطيع الخروج منها، لأنها تتحول إلى ملاحظات موضوعية عامة ودراسات قابلة للتحليل. هكذا ميزة النقاش الثقافي الذي يجمع رفاق درب الجامعة، أصدقاء سعيد بمراكش:

. العجب آ سي سعيد، يمكن البركة ديال جدك الشيخ السيد الله يرحمه، واقفة معك .

.كيف الأمر؟ مكائد كلامية جديدة أظن؟

. مراكش مليئة بالسائحات من كل جنس، وأنت دخلت في علاقة افتراضية حولت حياتك رأسا على عقب. الله يعطينا واحد "مسنجر" مبارك و مسعود من عنده .

.كل واحد و زهره.قريب بعيد، بعيد قريب.

. تبارك الله على الخنساء.

. اسمع آ بّا الحسين، علاقتي ب (كلير) أصبحت واقعية كما تعلم. انتظر فقط الشهر المقبل لكي تأتي من جديد ونضرب الأكحل في الأبيض.

. من مراكش لكندا، وا العجب هذا.

قهقه الجميع حول الطاولة المليئة بالقارورات الخضراء، جلها فارغة. سافر محتواها إلى شاربيها محدثا رحلة خارج ذاكرة اليومي المراكشي وحرارة طقسه. استحضر سعيد في لحظة شرود قصة تعرفه على (كلير)، مبديا هو الآخر الاستغراب من أقدار هذا الزمن الجديد الذي نعيش فيه.

يتذكر أولى تواصلاته عبر الإنترنيت مع كلير. في أول مرة لما استيقظ باكرا منتظرا وقت الخروج للسفر إلى مدينة أكادير، وفي انتظار سيارة صديقه، كيف شغل الإنترنيت، وفتح صفحات موقع التواصل الرقمي"الأبكور *abcoeur* " وتبادل التحية والتعارف معها. ثم انصرف إلى سفريته باكرا. يتذكر كيف كان لمكان إقامته وحياته دور في تعزيز التواصل معها. (كلير)، سمعت بمراكش، تعرفت عليها من خلال معارفها الذين حكوا لها رحلاتهم لها. بعض الأفلام الوثائقية التي تضمنتها. أصبحت مراكش منضافة في ذهنها إلى العجائب السبع التي تُبهر العالم وتبهر كلير وشوقها لزيارتها، إلى جانب شوق زيارة قرية جدتها من أمها باليونان. يبدو لها أن فلاسفة الإغريق لا زالوا بانتظارها ليشرحوا لها كيف هاجرت جدة أمها إلى كندا. هكذا هي أحلام (كلير) بين طفولية مرحة ورغبة اكتشاف الحياة والعالم لبناء ذاتها ومستقبلها. لكن، ما لم تكن تتوقعه هو أن يشدها رجال البلاد بمراكش بدل فلاسفة اليونان، من بين تعليقات سعيد معها حين مجيئها لزيارته بمراكش.

استمر التعارف عبر الأنترنيت لأكثر من سنة. دخل في البرمجة اليومية لكل واحد منهما، بلحظات الفرح والقلق، التعب والراحة، الغناء والصمت. تبادلا جميع الحوارات. أصبحت لحظة التواصل شوقا متعجلا عند كل واحد منهما. تشكل حب مجرد بين الطرفين. حمد الله فيه سعيد على كون مرحلة هذا التعلق بالتصريح بالحب لم تدم سوى شهرين، لما قررت المجيء إلى

مراكش من مونتريال للقاء حبيبها. نعم، سيكون الاستقبال بالمطار بعناق وقُبل حارة. هكذا رسماهُ بينهما في التواصل الافتراضي عبر شبكة الانترنيت. سيكون القميص الذي بعثه سعيد برائحة جسده في إرسالية بريدية عبر الطائرة، من مراكش إلى مونتريال، رايَتها التي تعانقها حينما تريد الخلود إلى النوم، حينما ركبت الطائرة، حينما نزلت منها، حينما عانقت سعيد، نفس الرائحة، نفس ابتسامة الإنترنيت وأكثر...

. عجيب هذا العالم الجديد،لا حدود مادية تفرقه. من بين تعاليق (الحسين غانم)، حين مناقشته موضوع سعيد و كلبر.

(عمر بروخ)، أخطر عنصر في التعليق داخل جماعة أصدقاء سعيد الخماسية :

. الرقم خمسة يرد علينا العين والحسد. الحمد لله. لكن اسمحوا لي أن أحكي لكم قصة المغربي الذي بعث بصورته لإحدى الدول الاسكندينافية. تسارعت الطلبات عليه.

. قديمة هذه النكتة آمسخوط الوالدين. عندك غير الكلام الخطير، العياذ بالله. .الله يخْليه ذلك اللسان السليط عندك .

. لن يبعث هذا النزق في الآخرة .

. الاسم ديالو، تقول أتى من المريخ، لا من الأرض ولا من الجنة. حتى ربي أعطاك مديرا في العمل غدارا. لا يرحم، دخلت (سوق رأسك) ... يعطيك الإذن الشفوي بمغادرة العمل لظروف ما، وحينما تعود تجد الاستفسار قد كتبه وأرسله لك.

. تصوروا إذا لم يرَ وليمة معروضا إليها، يبحث عن أسباب خلقها، باسم التواصل المهني وخلق دينامية الجماعة وإذابة الترسبات النفسية والشخصية التي تعرقل التواصل والتعاون بين أعضاء الفريق. (الأفكار كندية والنية كيدية). فيما بينكم، قسموا الأدوار، كل مرة وليمة عند أحدكم. الكرم يزيد في بركة العمل والعطاء. وفيه أجر كبير عند الله تعالى.

. اسمحوا لي بالانصراف... استأذن سعيد .

. اقتربت الساعة. يعلق عمر .

. إن الساعة آتية لا ريب فيها. يمزح الحسين .

في زيارتها الأولى لمراكش، استمتعت كلير برؤية مرافق المدينة ولياليها. كما أنها مع سعيد، حدّدا ما يحتاجانه من أوراق رسمية سواء بالقنصلية أو بالإدارات المغربية. هكذا وخلال هذه الزيارة الثانية التي ستتم، سيقومان بعقد زواج ودفع طلب الإقامة بكندا .

حينما يجلس بمفرده، يفكر في كل هذه التحولات الممكنة والمحتملة. سيل أفكار وقناعات يريد تحقيقها في حياته. حرية يشعر معها بالقيود المكبلة لرغباته. تعايشه مع مجتمعه الأسري والتجاري والحضري، وحتى مع ارتباطه السوسيو ثقافي، وخلال زياراته لقرية جده، قرية ابن السيد، حينما يناديه الناس ب(سي السعيد) أو(الشريف)، يشعر بثقل الحمولة والقيد السيكولوجي الذي ينزل به اللقب. هذه القرية التي حوّلها الناس إلى مزار. أضافوها لمزارات جهة مراكش المترامية الأطراف. جعلوا وظائف لمقابرها. تحولت فئة اجتماعية مهمة للاسترزاق ارتباطا بالضريح المبني والشجرة المباركة والماء الشافي في منبعه وساقيته... كم من أفراد أسرته، من أبناء عمومته ارتبطوا عضويا بهذا الدور الجديد. رغم أن المنطقة بقيت مهمشة خلال النصف الأخير من القرن العشرين بأكمله، لم تعرف من تطور في

البنيات التحتية إلا مع سياسات التنمية الجديدة، فإنها محج الزوار الذين اتسعت دوائر إرسالهم من جميع مناطق المغرب، من السمارة إلى وجدة وطنجة.لا أحد يريد الحديث عن أثر السياسي في وضع القرية، سبب الإهمال وعلاقته بحركة المقاومة التي وجدت منخرطين فيها مع من أرادوا الاستمرار في تحرير الجنوب، بعكس سياسة النظام الحاكم الذي أراد وقف حركة جيش التحرير. قد نحب البطل حتى وهو منهزم، لكن لا يد لنا على تحويل قدر موته. فالخوف خوف يمتلك الدواخل. المهم بركة الشيخ في شفاء النفوس العليلة وضعفاء الحال عملية تحويل لموضوع الاشتغال، فللأضرحة أصحاب الحال كما للسياسة أصحاب الحال كذلك. لكن سعيد يعرف كيف ينفلت من قبضة هذه الشبكة الثقافية.

في مداخلات اليوم الثاني، والتي تضمنت مشاركته بورقة في موضوع التسامح، أعاد محمد بن المصطفى بن الشيخ الاستماع إلى آلة التسجيل قبل أن يخلد للنوم، لفت انتباهه هذا الصوت الآتي من أقصى شرق آسيا، والممثل لمؤسسة تودا للأبحاث حول السلم العالمي. من جديد، بحث في "الشيخ" غوغل" كما يسميه، عن موقع وعن معلومات حول المؤسسة ومشروعها. وقف على أرقام احتاج ليتمعن فيها، الأمر الذي استغرق منه مدة زمنية أخّرت موعد نومه المعتاد: تأسست مؤسسة تودا عام 1996 في شهر فبراير. تعمل بشكل متنقل وغير ربحي. أنشأها عدد من الفلاسفة والمفكرين والباحثين الذين لهم قاسم مشترك في نشر ثقافة جديدة عبر العالم .

"تودا"، اسم فيلسوف ياباني هو جوزي تودا(1900 - 1958)،وثاني رئيس لجمعية أو منظمة (سوكا غاكاي)، الجمعية من أجل تربيةٍ لإنتاج القيم"، والتي أنشئت سنة 1930 كحركة تربوية، ثم تحولت بعد الحرب العالمية الثانية إلى حركة دينية تستند إلى التعاليم البوذية.

" تودا" متوفرة على شبكة من الجمعيات والمنظمات التابعة لها في 192 بلد في العالم. ينخرط فيها 20 مليون عضو. يجمعها هدف واحد هو: الدعوة إلى السلم العالمي و إيجاد نقاط مشتركة في ثقافات أخرى في العالم. "تودا" حاصلة على الميدالية الذهبية للسلام من منظمة الأمم المتحدة عام 1983...

لفت انتباه محمد بن المصطفى عنوان لمقال إلكتروني نشر في جريدة مغربية يحمل توقيع (إدريس الكنبوري)، ويحمل عنوان: " دعوة إلى ميثاق عالمي للسلم والمحبة والمواطنة بين الشعوب". المقال عبارة عن تغطية للقاء تم بالتعاون بين الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب ومؤسسة تودا اليابانية لدراسة السلام .

تقاطعت مضامين المقال مع مضامين مداخلة رئيس الشعبة العالمية لمؤسسة تودا، السيد "دايسكو إيكيدا"، والذي أغنى مداخلات اليوم الثاني من لقاء التسامح العالمي بمراكش الحمراء...

لكنه احتاج من جديد للبحث عبر شبكة الإنترنيت حول أسماء وردت في المقال ك (إيلا غاندي) حفيدة المهاتما غاندي، و د. (أسية بن صالح العلوي) السفيرة المتجولة للمغرب والمختصة في الأمن الغذائي والدراسات الاستراتيجية بمنطقة المتوسط، والمفكر (لورانس إدوارد كارتر) تلميذ الزعيم الأمريكي مارتن لوتر كينغ...

لم يرد إعادة الإنصات لمداخلته التي ألقاها هذا اليوم، باعتبار أنها أصبحت مستقلة عن ذاته ولحظة تفكيره. فهو بنفسه سينتقد بعض تساؤلاتها وافتراضاتها التي يمكن أن تكون مغلقة غير منتجة... إنما بلباقة وحسن إدراج، أشار معها إلى القيم التي يحملها التسامح، وكيف يجب أن يعيشه الناس... ندد بخرق القانون لحظة وجوده، معتبرا ذلك لا تسامحا... حاور الفرد والدولة في علاقتهما بالتسامح... أيعقل أن يغيب حق الاختلاف في الرأي؟ ما يعني وقوف حركة التاريخ والفكر...

حواره مع سعيد فكّره في لحظات الدراسة الجامعية بداية الثمانينيات من القرن العشرين والمحطات الساخنة التي شهدتها الجامعات المغربية... أما سعيد فكان لقاؤه ذلك المساء فرصة لمناقشة قضايا بلده وسياسته، والذي تلقى الغد خبر الإفراج عن أمين الجمعية سي بن العربي، وعن طالبين اثنين... بينما بقي مصير الطالب الثالث مجهولا... ترى أي ملف سيورطونه فيه؟ طلب من صديقه عمر أن يقرأ قصيدته التي أرّخ بها لمثل هذه الاعتقالات في ملف اعتقال زهرة بودكور...

في خشوع جنود مهزومة بعد معركة، أنشد عمر:

ابتسامتكِ أنقذَتْني

رغم رمادية المناخ

والإشعاعات الذرية

والفسفور، والموت العنقودي

ابتسامتك أنقذَتْني.

رغم بقاء الكلام بدون أنبياء

مات الجميع، ولا يزال الإرث

محط نزاع.

بالخنجر والبارود ونميمة الأسِرَّة

رفع القلم عن الكلام،ومن جديد مات الأنبياء

رغم ذلك،ابتسامتك أنقذتني.

لا يزال المسرح أضحوكة على الجماهير

أدَّينا ثمن التذاكر

اتَّخذنا الكراسي أمام الخشبة

لايزال المسرح أضحوكة علينا يا جماهير

اختلطت الحقيقة بالأساطير

أصبحت الأوهام تلوح فوق رؤوسنا

وعلى مسامعنا

أصبحت حواسنا ملهمةَ سرابنا

أصبحت الواحة مستوطنة

وبقي أبو يوسف ينتظر

عودة الابن

عودة الواحة

ذهاب الرمادية

انسحاب العناقيد الفوسفورية

علاج الأوهام

محاربة السراب وتصفية الحواس

معانقة الحقيقة

مصالحة التاريخ

تصفية الإرث الثقيل،

وانبعاث الأنبياء

لا يزال أبو يوسف ينتظر

وعصا سليمان عليها يتكئ

ومرض أيوب فيه ينخر

لايزال أبو يوسف ينتظر

كلام الأنبياء

ونزول الملائكة من فوق السماء لتعاني ما نعانيه

في غياب حلول الأنبياء...

ورغم، ورغم... أنقذتني ابتسامتك

أنقذتني.

فتحت لي فسحة لاستنشاق الهواء...

لزرع بذور الأزهار والورود

وبعض غذاء

في هذه الصحراء.

لامستُ شفتيكِ،

تم التنبيه وتم المنع

ابتعدت خطوات

قيودي كثيرة، أغلال.

ابتعدت و ابتعدت، أبعَدونا

خطوات

ورغم، و رغم...

ابتسامتك

تلك التي رسمتِها

كآخر ورقة منفلتة

من قيود المنع و القمع

قربتنا أحضانَ خطوات

شممت عبق عطرك الجسدي

اخترقَنِي ضخات

كآخر بذرة لم تعرف الاستحواذ

نشرتها، و زرعتها في صحاري

الفيافي و مدن الإسمنت

والأسنان الاصطناعية المبتكرة

بقتل الفيلة بالأدغال المحيطة بالصحراء

تلك الابتسامة

ابتسامتك، أنقذتني

حيا على الانبعاث

من حطام كل شيء، تم الحشر

من غرور غول الصحراء

تم الحشر من جديد،حيا على الانبعاث

سيتآكل جسد الغول

ستنهشه سرمدية بسمتك،

ابتسامتك التي أنقذتني.

في ذكر الأنبياء تهتز أركان الكون

تخاف المعالم من الأقلام،

و ما يسطرون.

لكل بناء خلل،

إلا موضع لبنة، لأجلها

ينبعث الانبياء

و الحكماء و الثوار

و الشعراء... و الشعراء.

زيارة سبعة رجال

بينما حمل اصدقاؤه بالملتقى الدولي للتسامح بعض نسخ دليل سياحي خاص بالمغرب، آثر محمد بن المصطفى اعتماد كتيب حول سبعة رجال للدكتور الباحث (حسن جلاب).

استغرقت قراءة فقرات الكتاب، التقطعات المكانية والزمانية المرتبطة ببرنامج هذه الزيارة داخل أسوار المدينة وخارجها. كما جعل استحضار ما تضمنته، في المناقشة مع أصدقاء ملتقاه. وإذا كانت الزيارات للاستمتاع والاستجمام، فهي تخلق كذلك شقاوة تفكير، يؤطرها موضوع التسامح وقيمه، التي يمكن أن تكون حاضرة عند هذه الشخصيات الزاهدة والفاعلة في تاريخ المجتمع المغربي عموما.

في نهاية الزيارة التي أجهدتها أشعة الشمس اللاهبة واللافحة مع تزايد قرص الشمس استحكاما فوق سماء وفضاء مراكش، علّق الأب أنطونيو مخففا وقع الحرارة بقوله:

. يبدو أن هذه الشمس خاصة بمدينة مراكش. كان الله في عون أهلها.

ابتسم الجميع لتعليقه... ثم أضاف موجها كلامه للسيد محمد بن المصطفى:

. تعلم مسيو محمد، راقني كثيرا ما قرأتَه من فقرات هذا الكتاب. أتمنى أن أجد له ترجمة... لقد اهتممت منذ سنين بموضوع التسامح عند ابن عربي، لكن للأسف لم أتعمق فيه كثيرا. يحتاج لوقت طويل لأجل فهمه.. هذا ما نصحوني به. كنت أظن أن شخصية ابن عربي استثناء، لكن يبدو أن هناك شخصيات لها وقعها من العلم والزهد والسياسة والفكر، من مثل سبعة رجال.

أضاف جمال بلقاسم:

. كيف نفسر الرقم سبعة؟ سبعة رجال بمراكش، وسبعة رجال خارجها في إقليم آخر؟

. نعم، أضاف ابن المصطفى، في منطقة عبدة إقليم آسفي.

. هل الحياة الاجتماعية تحتاج إلى هذا الكم من الحماية ومن السياج؟ نحتاج ربما إلى عالِم أنتروبولوجيا متفرغ لسبعة رجال.

. عندنا ساعة تقريبا قبل موعد الغداء بالفندق، يشير سي محمد بن مصطفى. ما رأيكم في كأس شاي ببهو الفندق من جديد؟ عندي لكم اشتغال حول الزيارة.

. ما المفاجأة سيد محمد؟ تساءل جمال بلقاسم.

. بما أنكم أثرتم مواضيع مهمة متعلقة بسبعة رجال وبالتسامح ستكون فقط قولة للفيلسوف ابن رشد أريد وجهات نظركم فيها (*الوجود ينفعل بالجود*). ما علق به الفيلسوف على سيرة الإمام السبتي أحد الرجال السبعة... و سأسجل شهاداتكم لدراسة مقبلة ربما.

زيارة القرية

على طول الطريق المؤدية للقرية،تجد في مدخلها سور المقبرة الرمزي، حتى إنك تجده بقايا آثار بلا أبواب. لكنه يبقى دائما سورا للمقبرة رغم كونه أشلاء وخرابا. جماعة من الناس بداخل المقبرة واقفون، ونسوة بمدخلها الرئيسي. ينتحبن تعاسة العيش الذي تغتصبه الموت منهن كل حين. كأنهن رافضات للذهاب . راغبات في الخلود، لكن هذه الدنيا تستطيع جرف دموعهن نادمات.

. من ماتْ؟ اللهم ارحم جميع المسلمين والمسلمات. هكذا عقب بالدعاء على سؤاله قبل أن يجعل الإشارة الضوئية لجهة اليمين ويركن سيارته أمام باب المقبرة. فعُرف القرية أن يكون الكلّ متآزرا في أحزانها وجنازاتها.

مروا على جماعة النسوة دون توقف، راجلين حتى مكان الدفن:

. آزركم الله في أم المعطي بن شعيب.

. عزاؤنا واحد. اللهم ارحمها وأسكنها فسيح جناتك.

ملتفتاً إلى سعيد ومحمد، أضاف صالح:

. هذه زوجة شعيب، شاعر القرية قديما. امرأة مسنة الآن.

. إنا لله وإنا إليه راجعون.

بعد الانتهاء من مراسيم الدفن وقراءة سورة يس والدعاء والترحم، تم تبادل التعازي. كان حضور الضيفين مع صالح كمنفرج جعل ابتسامة هادئة على محيا أهل المرحومة. انفتح قوس تاريخ جمع الزاهد والشاعر، وعَمَّر في فضاء القرية حتى بعد رحيلهما. وها هو اليوم يتجدد في هذا الجو الروحاني الحزين. مكونات ثلاثة:

أسرة الأب الجد الروحاني، وأسرة الشاعر الفصيح الذي دَوَّن الأخبار وكتب الرسائل، وقبيلة أمغار صاحبة الامتداد في التاريخ والمنطقة، والمزخرفة بفسيفسائها لباقي أرجاء جبال الأطلس والسهول المنحدرة، من أغادير، مرورا على ضفاف درعة وتارودانت حتى ورزازات وعروجا على مراكش الحمراء... غِنى ثقافة، وتربية وانتماء، شكل هوية مركبة لجميع الأسر المنصهرة فيما بينها. قبائل إينولتان، وإيداوتنان وآيت واوزكيط... مكونات كبرى تتشابك خيوط مصاهرتها في هذه القرية القريبة من جبل (سيروا) أعلى قمم الأطلس الجنوبي.

تداعت الأفكار عند محمد بن المصطفى، وعيناه تتجولان بين الوجوه والتضاريس المحيطة، بين الأشجار البعيدة المورقة ويباب تربة المقبرة... استمر السفر الذهني، أهل الشيخ من القرية، وأهل الشاعر من القرية، رغم المصاهرات الممتدة بين المناطق وحتى القارات... هذه ألمانية بهوية تركية، وهذه كندية بهوية يونانية أوروبية...وماذا بعد؟

راودت هذه الأفكار محمد بن المصطفى وهو متجول بين أنحاء هذه المقبرة تأملا وترحما على موتاها، وهو مُخْتَلٍ بطريقة لبقة لدواخله حتى يختبرها أمام الموت والقبر، ويرى درجة تهيئه للحظة مثل هذه.

رفع بصره ما وراء التلة، أرجاء القرية الممتدة بقديم بنائها وجديده. صومعة المسجد الأكبر الجامع. وفي اتجاه منبع المياه، هناك، الشجرة الظليلة، (تمالوت) كما يسميها روادها للاستمتاع بظلها. لكنها عند محمد رمز لتاريخ الأسرة والقرية كذلك. هناك قبر عمه الذي سمع فقط به وعن أخباره من جيل القرية أكثر مما سمعه من أبيه ابن السيد الذي جعل موته شهادة ميلاد لتسمية جديدة للقرية. مثلما جعل روحه محج زيارة للباحثين عن أرواحهم رغم أنهم مُلْبَسُوها أو قل هي مُلْبَسَةٌ بهم... أكيد أحتاج إلى ظلال تمالوت وهدوئها. هكذا بدأت رغباته الطفولية تنبعث خلال هذه الزيارة من بداية القرن الواحد والعشرين للقرية.

في خروجهم من باب المقبرة باتجاه السيارة من جديد، لاحظوا وجود رجل جالس بخنشة خيشه، رزمة كبيرة معلقة ومعقودة على عصاه الغليظة التي يجعلها رافعة حمله وحمل أثقاله عند هَمِّه بالنهوض والسير والمشي...

. من هذا الشخص الجالس بجانب الطريق؟ سأل محمد بن المصطفى.

. إنه "بوعلام" الهبيل كما يسمونه. لكنه بايْن عليه مجذوب ومعه البركة... أجابه صالح.

. ما قصته؟ وما حكايته يا صالح؟

. أهل بلدته الذين يعرفونه ويأتون إلى سوق القرية، يحكون عنه الغرائب.

. كيف؟

. كان بوعلام جالسا على درج دكان، ومَرّ القائد لصلاة الجمعة بلباس أبيض ومعه الشيخ والمقدمين وبعض الأعيان... رأى "بوعلام" المقدمين يصرخون ويطردون المتسولين من الطريق... صرخ هو كذلك متهكما: البلاد مشت في حمى الله الكريم.

جاءت إلى آذان الوفد الكلمات مستفزة... تصبّب القائد عرقا وصرخ في الشيخ: لِيُنْفى هذا الهبيل الآن.

قبل التنفيذ لأوامر (القايد)، كان "بوعلام" منصرفا باتجاه مخرج البلدة... وكأنه كان مستعدا لهجرها برزمته.

علق سعيد: أما يزال النفي ساريا في بلادنا؟ هو إذا لاجئ سياسي عند الشيخ السيد الله يرحمه.

ابتسم الجميع معاتبا هذا المزاح السياسي، بينما أخرج محمد بن المصطفى ورقة نقدية ناولها ل (بوعلام) الذي عَلَّق بصوته الضاحك دائما في الكلام:

. الغنى من عند الله الكريم.

. لا يمكن لشخص أن ينجو من لسانه... عقّب صالح قبل أن يدير محرك السيارة باتجاه المنزل.

مع صوت المحرك وتسارع استدارة العجلات،كان محمد بن المصطفى صامتا مع المحيط متكلما من جديد مع دواخله ومحاورا لأفكاره:

قد يكون مرتاحا في فلسفته وصراحته. كم منا لا يستطيع هذا الوضوح مع وجدانه ودواخله. كم منا يعاني الأرق والكبت والضغط لأنه لم يفجر كلاما أو تعبيرا أو موقفا رافضا أو بوحا، عله مرتاح مع هبله كما نقول. ليعتبره الناس أحمقا، هبيلا، هذا يعطيه مبررا ليقول ما يشاء وإن كلفه ذلك هذا النفي من بلدته وإزعاج بعض المنفعلين.

متوجها بالكلام إلى سعيد وصالح:

. لعله مرتاح في هبله؟

. كم من شخص لا يريد العودة من الحمق والجنون... يجده أفضل له من عالم العقلاء وأسعد... عَقَّب صالح... قبل أن يضيف: هذه الليلة صدقة وعشاء عند أهل المرحومة. لابد أن نذهب بعد صلاة العشاء.

. إن شاء الله. اللهم ارحم جميع المسلمين والمسلمات... أجاب محمد.

قبل الخروج من السيارة للدخول إلى المنزل، توجه محمد من جديد بالكلام، هذه المرة إلى سعيد:

. تعلم يا سعيد، فلسفة المجذوب عميقة وحكيمة... حتى السفر له توظيف كبير في تحقيقها. هم يعيشون فلسفة دون الحاجة لكتابتها. ولعل هذا فرق بيننا وبين الغرب، هم يكتبون أكثر، ونحن نمارس ما نومن به أكثر.

. أكيد... أرى أن مثل هذا المجذوب لم يكن مجنونا يوما ما. لم يرد أن يخادع الآخرين. عبّر بأسلوبه وطريقة حياته لرفضه لواقع ما... وربما حتى السياسي، عندما يجعله ينتقد، يرى فيه الناس أنه أحمق، لأنه يعرض نفسه للخطر... والناس عندنا تقول ثلاثة لا تعاشرهم ولا تصاحبهم منها النار والمخزن...

عند النزول من السيارة، آثر محمد بن المصطفى، مع تعب السفر والطريق أن يترك الذهاب إلى المسجد حتى أذان صلاة العصر، لأجل صلاة الجماعة والتواصل مع أهل البلدة والترحم على جده وأبيه. فقبراهما في زاوية وراء المسجد، هي مخصصة لبعض قبور أهل البلدة. أما صلاة الظهر، فسيكتفي بأدائها في المنزل، ما دامت مراسيم الجنازة قد أخذت الساعة وزيادة من الوقت.

استراحة بعد الغداء واستحضار لذكريات مرتبطة بالقرية وكذا لما يرغب إتمامه من بحث حولها.

. استرحت جيدا يا سي محمد؟ سأله صالح، قبل أن يخبره بجديد "بوعلام"...

. نعم، الحمد لله.

. تعلم، لقد أتى "بوعلام" بتين طري من بساتين القرية المجاورة، وتركه لك موصيا بصاحب البدلة البنية الفاتحة. يعني أنت.

. عجيب أمر "بوعلام" هذا!

. قبل أن ينصرف علق: (كل شيء من فضل الله الكريم)...أزيدك شيئا: معروف عليه أنه إذا أعطيته شيئا تبرعا بحث عن مقابل يعطيه لك. بعض الأحيان قد تعطيه درهمين، فيبحث في جيبه ربما يعطيك كل ما يملكه. لقد قال قبل أن ينصرف من باب المنزل ضاحكا:

الكرمة بجانب العين و العين بجانب القبر... الله يرحمنا في الكبر و الصغر.

. أكيد سيعاود الحديث معك حينما يلتقيك.

. نتمنى حكمة من بركة هذا المجذوب. علق سي محمد مبتسما.

عالم افتراضي

سعيد، مثل شباب اليوم من جيله، في ترحال إلكتروني أينما حل وارتحل. عالمه يمزج بين الواقعي والافتراضي، حيث التداخل يجعل بينهما حياة يومية معيشة بمشاعرها وأفكارها ومخاضاتها... في بداية الصباح، حمل حاسوبه معه متجها صوب منبع الماء، بجوار الضريح المبني لابن السيد، أخ جده المصطفى. حب فطري لظلال الشجرة والمياه. ما يزال عرف النساء مستمرا في استعمال مجاريها. بسط الحنبل الصغير الذي أخذه معه من منزل عمومته وجدودته.افترشه لصبحيته وتبحاره عبر النيت. عولمة مخترقة لقمم الأطلس وسفوحه. ما تزال كلير لم تستيقظ بعد. رغم أن النيت جامع في اللحظة الواحدة، إلا أن سنة الليل والنهار، أو النوم واليقظة، فاصلة بين مكانين وعالميين نسبيا. لكنها شبكة علاقات حياتية كبيرة يعيشها سعيد عبر هذا النيت. بريد رسائل على الياهو الهوت مايل. منبر الفايس بوك ودائرة صداقات وجديدها اليومي، وقراءة ومشاهدة وسماع الجديد المقترح في التواصل... عالم تواصل وتبادل، عالم ضغط على الأزرار، لعبة جاذبة للعقل والحواس...

التحاقُ محمد بن المصطفى بجلسته جاء بعد الساعة ونصفٍ تقريبا. واجب صلة الرحم للغالية وفطومة ولأُسر آيت عقا وأمزيان أختير، العائلات الكبرى بالقرية. إطلالته على ورش الجمعية بتوصية من زوجته سارة...

. أتمنى أن تكون تغطية الهاتف موجودة في هذا المكان.
. الأنترنيت شغال كما ترى... إذا أردت استعماله عمي محمد...

. سأكتفي بمكالمة هاتفية مع سارة، شكرا.

تحدثا عن أصداء المؤتمر، وعن شؤون البيت بألمانيا، قبل أن يطيلا الحديث عن القرية وأخبارها، والجمعية ومشاريعها التنموية... وبقي للحديث بقية. ربما في المساء أو بعد الزوال.

أما سعيد، فقد كان منهمكا في رسالة صباحية طويلة، بعثها إلكترونيا ل (كلير). ضَمَّن من بين ما ضمَّنه، جديد زيارته للقرية ووصفه لطبيعتها، وجلسته تحت (تمالوت) الشجرة الوارفة الظلال. التقط شريطا لدقيقتين لمحيط جلسته بكاميرا الحاسوب وبعثه مع الرسالة الإلكترونية. إخراج حي أبدع في حبكته هذا الصباح مع عالم الإنترنيت.

ها هو (بوعلام) آت من بعيد. وقف بضحكته وبسمته دون أن ينظر بعينيه للجالسين:

. ها العين... أُوها القبر... أوُها الظل.. كل حاجة منها عشرة، يا في السما يا في الكرمة.. من الصوف تْصنعَتْ الحكمة... القايد ما عجبو كلام بوعلام... و الجدارميا . الدرك . ، هنا دَّاوْ عشرة من كل ميا (عشرة من كل مائة°)... مشات الحكمة... وا راها مشاااااات الحكمة...

ثم انصرف مرددا العبارة الأخيرة عدة مرات وهو ضاحك من وعلى كلامه...

لفت انتباه محمد بن المصطفى رقم عشرة الذي ذكره "بوعلام" كل مرة، والذي جعله عدد حبات التين التي وضعها أمام الباب... سجل عبارات "بوعلام" في ورقة وطواها بعناية ووضعها في جيبه. ما لفت انتباه سعيد واضطره إلى السؤال:

أي حكمة في كلام هذا المجذوب؟

. تحتاج إلى فك شيفراتها يا سعيد.

تذكر محمد حركة المقاومة، كيف كانت مدعمة برقم عشرة من الصوف ومن المتطوعين، ومن الضاربين في الأرض للتجارة من أبناء القرية... تذكر وعده الذي جعله على نفسه لجمع أخبارٍ تاريخية حول القرية، والبحث عن رسائل أو مخطوطات يوظفها لهذا الغرض... تذكر قصيدة الشاعر شعيب، كيف سيتطرق لهذا الجمع مع أهل القرية أو بعضهم؟ لابد من طرق أبواب.

و لكن كيف استطاع "بوعلام" نسج هذه العبارات؟ ربما هي جامعة لخيوط رئيسية وعناصر أساسية لمشروعه؟ لماذا لا يجعل المشروع رواية فينطلق من قولة بوعلام هذه ويحلل عناصرها الدالة؟

المراسلات: الخيط الرابط للتاريخ

ذلك الصباح، كانت الشمس مشرقة وباعثة دفئا بيئيا، انتعشت به طيور الحدائق وأزهار البساتين والشرفات. ذاك الذي انفتحت به صرخة حياة ورأيتُ فيه بسمة شارقة مع الأشعة البلورية التي عكسها زجاج نافذة الغرفة بمستشفى الولادة حيث وُهبنا بزهرتنا الصغيرة سماح. كنتُ الحاضن لسليم في سنه الثالثة. شاءت صدف الحياة أن يترعرعا متقاربين في السن، متقاربين في لغة التواصل. وكنا نحن ـ الاثنين ـ نرعى الألفاظ الجديدة المدغمة والمرموزة والمفتقة مع الملاكين... اضطررنا لجعل مساحة سرير غرفة النوم أكبر حجما، ليس لسمنتنا، ولكن لهجوم الطفلين على عالم حضانتهما. كانت ضحكاتنا نحن ـ الإثنين ـ كل مرة تُكتم عند التقاء أعيننا دون كلام، حين نجد سليما و بجواره أخته التي داعبها لعبا فوق السرير، قد غرقا في النوم بأي وضعية تشكلت... ربما نحتاج كطفلين كبيرين للذهاب لغرفة الأطفال لننام ونترك هؤلاء الراشدين الصغيرين في سبات حاضن لدمية أو مالك للعبة ما... "ربما" كانت مفتاح تسامحنا الذي يذوب كل عتاب وكل لوم. والذي ينزل شآبيب هناء هاطل رحمةً على قصر قلوبنا، راقصا تحت مطره،

مغتسلا به، قافزا وصارخا ومتوهجا به كذلك... هذا العالم، استمر لعقدين تقريبا. جاور الدراسة والأندية والمعاهد. صاحب الاختيارات والاكتشافات والاحتيارات... جعل قيادة مركزية بين الأب والأم، محتاطة من المفاجآت، وأكثر من التساؤلات... كان امتحانُنا حذرا كل مرة، حين تنتقل سماح بين جلسة أبيها، وجلسة أمها، بنفس السؤال، وحين استحضارها لأخيها كشاهد على استنتاجها. نقف الإثنان أو نجلس أمام محاكمة بريئة، نحتاج معها إلى استفسار أو توضيح لأجوبتنا، كلما اختلفت أو تباعدت بين الواقع والخيال، بين الجد والهزل... بساطة الأطفال عميقة عمق كلام الحكماء والفلاسفة. كم مرة اضطرتني لمزيد من الدراسة لبعض المواضيع، أو لإعادة تناولها من جديد، من زوايا جديدة، حتى أبحث عن وسيلة لمعاودة الكلام عنها من جديد بطرق مباشرة أو غير مباشرة، تقف معها بعض الأحيان ملعقة تناول اليوغورت أو حساء أو أكلة، قاب قوسين بين شفتيْ سماح المفتوحتين بلهف تذوق الأكلة وتذوق المعرفة الجديدة، بين سماء وجهها الطفولي الذي بقي خالدا في قلبي وتعاملي، وبساط أرض الطاولة التي أسندت عليها معصميها. كان طول سليم الذي يزيد عليها بعشرة سنتيمترات، وكان نضجه الحواسي الذي يساعده على تركيب العمليات قبلها، يساعده على جعله يستمع وهو ينتقل من طبق لآخر في انسياق مع ما تشتهيه النفس العاشقة لما تهوى من المأكولات والمشروبات. ذلك الصباح المشع بضيائه، استحضرته كذلك وأنا ممدد على الأريكة، استقبلت

تحية شمس أرسلت أشعتها المتحولة زجاجيا إلى ملائكة أرجوانية ممتدة الخطوط، زاحفة بشعاعها على جفوني التي أغمضتها، طارقة أبوابها، محاربة لكسل صاحبها، مزيحة لتلك الظلمة التي بحث عنها حتى يفر إلى نوم استرقه من جلسته الحوارية مع سارته، خصوصا بعد صبحية المشي الرياضية في ربيع فرانكفورت الجميل. نفس الشعاع الضوئي، طرق باب نومي، ودعاني إلى ململة الرموش كتلابيب ستارِ خشبة مسرح كانت تعج بالممثلين والراقصين، في لوحات حياة ومشاهد وذكريات وألوان، داعية الكل إلى التفتح على مسرح الواقع، على جمهور حاضر ومهتم بما يجري... كان دائما مخلصا ومشاركا، كانت دائما هي سارتي التي تؤثث ثريات وشرفات فضائه الجميل. استويت من جديد في جلستي، حين شعوري بدبدبات مشي خفيفة طقطقَها البابوشان مع أخمص قدمين، بالكاد يريدان إسماع خطوهما أو إيقاظ سكان معمورهما. حج وحاجة كما في ثقافتنا المغربية والتركية. تلك خلاصتها الكلامية لأمور موازية ضرورية أو ثانوية قد تقوم بها، وقد لا تبوح بها، وقد تكون من بينها تلك الخاصة بعالم نسائها، جلستها أمام المرآة في إعادة رسمٍ لجمال حياة، ولوحة متجددة بالحياة والجمال البشري الأنثوي.

. يبدو هذا الصباح فاتحا شهية الكلام، مبعدا لشهية الأكل بعض الشيء. يقترب نصف النهار ونحن لم ننته بعد من هذا الذي فتحنا بابه وبحثنا عنه في كلامنا وحوارنا... تستوي سارة في جلستها و دهي تجعل الغطاء بلونه البنفسجي الشفاف على ركبتيها اللتين قامت بثنيهما بجهة الشِّمال، حتى

تجعل سند ركبتي سي محمد لهما، وحتى تجعل الغطاء مشتركا في التنعم بدفئه ومواصلة حوارهما، وحتى يتلاءم الكلام مع المقابلة بالنظر والتواصل بالجوار واللمس المؤدي بالحدس لرسالته في التعبير وإيصال ما يروج من تفكير والمساعدة عليه بينهما... دون أن تنسى التعليق الملمح كما أخذته من تلويحات سي محمد المراكشية المليئة بالنكات والمثل: مَنْ تُحبه قابلْهُ...

. قولي لي سارتي...

. نعم، محمدي...

. العنوان الإلكتروني الذي وقعت به رسالتك، هل تتذكرينه؟

. مممم.... سآتي بحاسوبي المحمول إذاً. لا زالت الرسالة مدونة فيه، ونسختها هي التي طبعتها. حركة من جديد. حرام عليك.

. لك أجر الرسالة وحسناتها. من جديد.

وهذه المرة ينضاف الحاسوب لعالم حوارهما وجلستهما، يتخذ فخذي سارة أرضية، وركبتي سي محمد سندا. تفتح الرسالة، تتهجى عنوانها الإلكتروني تفحصا، يلاحظان نسيان نقطة بين الكلمتين: **saramo** .

. أظن أن العنوان الإلكتروني قد دُون بشكل خاطئ. ولذلك لم تتوصلي برد عليها. نقطة واحدة تجعل التحول في الأحداث، في العالم...

. الحمد لله ليست النقطة التي أفاضت الكأس في هذا العالم. ههه حتى تعلم أنني لا أجعلها بيني وبينك. ههه... saramo

. أكيد، ولكن فيض الكأس ينتظر تلك النقطة هنا sara.mo ، حتى يُملأ أولا. لقد تلقيت خمس رسائل لحد الآن.

. و لِم لَمْ تخبرني بها؟

.كنت أنتظر اكتمالَ ملف، ومفاجآتٍ أكثر، وعناصر تحليل... لم أرتوِ بما فيه الكفاية لمعالجة موضوع الرسائل.

. أتجعل اشتغالك الفكري بنفس صورة اشتغالك العلمي المختبري؟ ربما القياسات تختلف.

.كيف ذلك سارتي؟

. أول شيء، إنني عضوة في مجموعة بحثك وتنقيبك. هل نسيت. مختبر رسائلك، مجال اشتغالنا المشترك. ألم نشترك في رحلة الباخرة معا؟ هل نسيت؟ ديمقراطية يا سي محمد. أبحث عنها في قياسك. وأبحث عنها في جلستك، دعني أستوي في جلستي بجوارك.

. أنت على صواب. رغم أنني أردت تزويدك بمادة كافية وجديدة، وليس مجرد خمس رسائل فقط. إليك ديمقراطية الجلوس.

. إنما قل لي: ما فحوى الرسائل الخمسة؟

. سأبدأ في الحديث بما حبس أنفاسي، ودعاني للتأمل في الوجود الإنساني. الرسالة الرابعة، وهي التي تلقيتها في شهر يناير، من شخص يدعى (هانس). لم يُعطني تفاصيل عن نفسه. كم عمره، اشتغاله؟ غرابة رسالته أنها بدأت بلوم عملنا في ما قمنا به. اخترقنا حريته وعزلته. لم أظن يوما أن الحرية تفسَّر بالعزلة ! اقتحمنا جلسته بعيدا عن كل تواصل بشري. رغم حبه للطبيعة ولجوئه إليها يوميا. لكن الرسالة بقدر ما فاجأته، استغرب معها لطبيعة العمل الذي يصدر عن شخصين راشدين. اعتبره إزعاجا للناس، رغم القيم التي صرح بأنها تدعو إليها.

. ولكن، كيف وصلت رسالتانا بين يديه؟ وهو المتلقي الرابع لهما؟

. لا تنسيْ أن طلبي الأخير في رسالتي هو تذييل كل جديدة بعنواني الإلكتروني إلى جانب عنوان المرسِل الجديد. ربما المرسِل الثاني والثالث والرابع، قد شرحوا في فحوى رسائلهما مضمون رسالتينا. وهذا ما بدا لي من خلال قراءتي للرسائل الثلاثة قبل الرابعة.

الرسالة الثالثة، قصيرة جدا: من نهر الماين، في شهر شتنبر، على متن قارب سياحي صغير، تلقيت الرسالة، قرأتها، أطلقت سراح السفينة، لم أسجل شيئا إضافيا من طرفي. حالَما تؤسسون لمؤتمر تسامحكم، أنا في رحلتي المائية المغتسلة من خطايا البشرية.(ميلر.ب).

الرسالة الثانية والأولى، ظريفتان جدا... يبدو أن تأثير فصول السنة كان واضحا على نجاح تواصلنا. في يومها الأول، رسَتْ سفينتنا بجانب حديقة (*Falkensteiner*). تلقتها طفلة صغيرة في السادسة من عمرها، بفرح وصراخ. ساعدتها أمها على استكشاف مفاجأة السفينة. بعد ارتياب واستغراب، أطلتا على ما بداخلها، صندوق زجاجي محتوٍ على رسالتين. ظنّتها هدية السماء أو هدية حورية البحر. كبُر الحلم، امتلك الطفلة Alize سحر اللعبة، واحتفلت العائلة بالحدث. كما شارك الجميع في مساعدتها على تحرير الرسالة، فكانت جميلة جدا. فبعد حوالي شهر من تسلمها، نضجت الفكرة عند الصبية، وأيقظت أباها وأمها في السادسة صباحا. بعينين مغمضتين، رتّبا معها رحلة السفينة، ورسالتها المفصلة التي كتبتها مع أبويها بعناية داخلها.

رسالتانا بعثناهما في شهر ماي. تليقتُ الرسالة الإلكترونية في شهر يونيو. والطريف في الأمر أن الأسرة تسكن على بعد مسافة قريبة من قنطرة Ignatz-Bubis-Brück، بالقرب من مجال وحديقة عدْونا وتجوالنا... ربما نمر على حيهم خلال عودتنا لمنزلنا، مرورا بساحة Falkensteiner.

الجميل، أن العناية كانت كبيرة بمشروعنا وحلمنا... أحبت تلك الأسرة الاشتراك فيه. و نفس ما فصلوه في فحوى الرسالة البحرية، فصلوه في فحوى الرسالة الإلكترونية. تُرى، هل هم كذلك يتلقون رسائل مماثلة أو

أكثر لما نتلقاه؟ لقد أصبحت باخرتنا الكهربائية ناشرة لفروعها كشركة تريد أن تكون عالمية، مثل الشجرة الرياضية. فقط أننا لم نوظف فيها ما يقوم به البعض من جعل بركة دينية أو سحرية على عدد المرات التي يحتاجها المشارك في اللعبة في توزيعها من جديد: خمسة، عشرة.. وربما أكثر.

ها نحن خلقنا عالما افتراضيا موازيا للإنترنيت. ربما، سنؤسس للمؤتمر قريبا مع أصحاب هذه السفينة التي تفاعلوا معها. أي جنون حكيم يا سارة يمتلكنا في هذه المرحلة من العمر؟ ألم نعد أكبر من هذا؟ رغم التقاعد النسبي الذي جعلنا نعمل بشكل محدد في شراكات وعقود خاصة مع مختبرات، لا أدري أهو حنين إلى الطفولة؟ إلى البلد؟ إلى ذاكرة تاريخية نسجلها خاصتنا؟ نربط بها اتصالات.

فلحد الآن كان التعامل إيجابيا في رغبة التواصل الاجتماعي والثقافي من خلال رحلة السفينة. وهذا نجاح مشرف لحلمنا النبيل. والحمد لله أن صاحب الرسالة الرابعة قد تسامح مع جنوننا، وأعطى الحرية لباخرتنا لكي تبحر فوق مياهٍ باحثةً عن قلوب ناشدة للتواصل والمفاجآت:

. حتى لا أكون مانعا لحلمكم، أطلقت سراحه في جوف مياه النهر. لعله يصل إلى شاطئ منشود. هكذا وقَّعَت الرسالة الرابعة ردها !

الحفر في الذاكرة:

علي بن المعطي بن شعيب، حفيد الشاعر وإمام مسجدها الحالي. حافظ للقرآن وخطيب فصيح، وممتع في خشوع تجويده للقرآن الكريم، وفي تراويح رمضان على الخصوص. امتلك موهبة خط جميل وحب للكتاب والتدوين، مثل جده تماما.

كانت صلاة الظهر بالمسجد الجامع، وكان اللقاء بين محمد بن المصطفى وعلي بن المعطي، بعد الخروج من المسجد. أما سعيد بن علي بن عبد العزيز، فقد حضر لصلاة الجماعة، وأداها، رغم أنه نادرا ما يستجيب لنداء الصلاة. إنما، هناك بذرة إيمان يستشعرها، ولا تترك صاحبها، كالأم التي تحن على ابنها كل حين، لا تتصور استئصاله منها. رغم أنه كان شاعرا بغرابة ما، أو بذنب ما. قد يكون المتناقضان معا حاضرين.

قد يلاحظ المصلون حركة خارجة عن مألوف الصلاة الجماعية، لكن واجب الخشوع الفردي، تجعل العبادة خلال أدائها أمرا شخصيا، مما يُعلّم حدود

الاحترام للآخر نسبيا. ترك سعيد عمه محمدا مع علي الإمام، و ذهب لزيارة عمته فطومة في بيتها رغم أنها قضت ليلة الأمس مع العائلة الكبرى ومعه.

فُجاءة لقائه مع عمته أنها سلمته صندوقا متوسط الحجم، من الخشب الأحمر الداكن اللون، مزينا من جوانبه بمعدن لامع ومقبب السطح، ما يجعله مغريا لكي يكون محتويا لغرائب أو جواهر. فيه ثوب صوف وحرير، وفيه كتيب ملفوف بمنديل، إضافة إلى بعض المخطوطات الملفوفة بضفائر من ثوب أملس.

. سمعت أنك ستتزوج، أردتك أن تأخذ هذا الصندوق الصغير هدية مني، مباركة لك ولزوجتك.

. شكرا عمتي فطومة. قَبَّل رأسها ويدها.

. الله يبارك لكما ويسعدكما، ويرزقكما الأولاد الصالحين. كلها والقسمة ديالو...

قصة فطومة التي استحضرها لا شعور اللحظة، قصة وطن اختُطِف أبناؤه. زواج لم يتم بدُخلة، مجرد كتابة عقد وذهاب الزوج من يومه إلى جبهة الجنوب. كانت يومها فطومة بعمر وريعان الشباب. قامة رشيقة لا هي بالنحيفة ولا بالبدينة، جيد يتراءى مع محياها، يخجل بصر الناظر لالتفاف

جدائل شعرها على منبسط صدرها منه. رغم الحجاب الذي يغطي الرأس، كانت مفاتن فطومة كامرأة مهتمة بمظهرها بادية. الآن بعد حوالي ثلاثة عقود على زواجها الذي لم يكتمل، لا تزال قامتها تحافظ على ملامح فطومة الشابة التي لم تفقد نضارة وجهها ولا حسن قدها وقوامها. إنما عيناها تخفيان حزنا يفرض الاحترام على جاهِله. احترام يميز طابع شخصيتها في التعامل مع الناس ومشاركة المواضيع الجدية والمعقولة معهم، سواء كانوا رجالا أو نساء.

لحد الآن لا يفهم الجل سبب عدم زواجها من جديد. لم يستطيعوا تفسير ذلك، رغم التأويلات التي تتبادر لذهن وعقول الناس... هل هو أمل في رجوع المفقود، أم استمرار في تعلق بحب لم يكتمل بزواج ولقاء جديدين، أم ماذا؟ جندي أُسِر من طرف (البوليساريو) جبهة الداعين لجمهورية صحراوية بدل أن يكونوا إقليما منضما للمغرب. لم تظهر له أخبار. طال الانتظار، وانغرس معه أسى وحزن داخلي، رفضت معه فطومة أي بديل، لا بتطليق ولا بتسليم موت، بقيت تعيش مع حلم عرسها ودُخلتها وفرحتها!

أوقفت عقارب الزمن منذ سنين، نهاية السبعينيات من القرن العشرين. لم ترد أن تعيش مع أهل زوجها آيت أمزيان بالأوراق، لم ترد تغيير القرية ولا بيت الأبوة والجدودة. بقيت هي هي، فطومة من أسرة الشيخ السيد. كأنها

متحدية القدر الذي يكتب خط الحياة بالموت والفناء. ستعيش هي بأملها الداخلي وحلمها الذي رسمته. ستوقف أي تفكير درامي للأحداث لما وقع وما يمكن أن يقع كاحتمالات.

ربما هو غضب داخلي أقفلت معه نفسيتها وهبتها لما تبقى حولها من ابتسامات. ربما هو كبرياء يتحدى غدر الزمن والحياة الدنيا التي تفاجئ الإنسان كل حين بصدماتها. حتى إذا غرتك بالأماني ومتع النفس، سلبتك فؤادا وغرست جرحا في وجدانك.

يبقى التحدي بهذا الرأسمال الذي هو ما لا تستطيع الحياة تقييده: كبرياء النفس وعزتها.

كم لامها محيطها من الأهل والأقارب والمعارف. لا رادَّ لها عما صممته مع دواخلها.

بقيت فطومة وفية لما تعلمته في بيتها من قراءة وكتابة، ونسج للزرابي وخياطة واندماج في عمل جمعوي عوّضها نواقص كثيرة، وانتصرت به على أهوال القدر المخيفة. اندماجُها كذلك كان مع عالم سارة وضيوفها الألمان الذين يفدون للإقامة في بيتها عند كل ورش أو عمل جمعوي وتنموي للقرية. خصوصا وأنها أمينة مال الجمعية والساهرة على تدبير مصاريفها.

كانت سارة، بتقاعدها النسبي من العمل في المختبر العلمي بفرانكفورت، قد اندمجت في العمل الجمعوي بقسم الموارد البشرية بنفس المدينة. وبما أن ألمانيا رائدة في حركية المجتمع المدني، استطاعت أن تخلق شبكة جمعوية ذات بعد دولي. حققت معها لقرية ابن السيد إشعاعا حبَّبَ لمجموعة منها الذهاب والتمويل والمشاركة في أنشطة ترضي ضمير هذا الإنسان المتقدم والمتطور، والذي يريد أن يقدم لشعوب العالم بعض المساعدات، ويكتشف من خلالها الجديد في السفر والتواصل مع ثقافات ولغات ومناطق غريبة عن بيئة ألمانيا.

بقيت فطومة وفية لصندوقها، الذي لم يتضمن إلا لما يرمز لعرس تنصهر معه القرية من جديد كما انصهرت بين أفراد عائلاتها. ثوب صوف، هدية أمها لها، وثوب حرير، اشتراه زوجها الذي أصبح سرابا. يسرع القلب في الخفقان كلما تَوَهّم السمع أو الذهن والحواس صورته ومجيئه.

مخطوطات معدودة على رؤوس الأصابع، بقيت كاتمة أسرارها في التفافها. أما الكتاب، فمخطوط يد صغير، يتضمن صفحات مرتبة. أشعار خاصة بخط جميل، بالعربية والأمازيغية، كلها بخط عربي متقن. لم تَبُحْ لسعيد بأصل الكتاب وكاتبه. على سعيد أن يفك ألغاز مضمون الكتاب والأشعار، إن هو أراد معرفة المزيد عنها.

سيعود سعيد في الصباح إلى مراكش،لا يدري إن كان ذلك برفقة عمه أم بمفرده. فالدكان في مراكش بقي محروسا ومسيّرا من طرف (امْحَمّدْ) ابن

القرية من عائلة أخَتير، الذي احتضنته أسرة سعيد صغيرا، ليمارس التجارة ويتعلمها ويطلب رزقه منها، عساه في المستقبل يكون له متجره الخاص وربحه الوفير. هو حلم مشترك، الكل بناه ل(امحمد) وأمثاله، فصنع به عزيمة وصبرا على التعلم والعمل والخدمة والمثابرة.

معظم شباب المناطق المجاورة في تارودانت وسوس ماسة ودرعة وآيت عتاب وأزيلال وغيرها، هاجروا في وظيفة سوسيواقتصادية، تقتضي العمل مع من سبقهم من أبناء أسرهم وعمومتهم حتى يستطيعوا يوما ما التوفر على تجارتهم الخاصة. والمدن المغربية جلها ربطت تجارة البقالة بالسوسيين والأمازيغ.

لكن، أمانة الكتاب والمخطوطات، وجدها سعيد كبيرة عليه، ذلك أن اهتماماته متباعدة مع الكتب القديمة وبالخصوص المخطوطات، ولو كانت أشعارا. ما العمل؟ الاستنجاد بعمه محمد بن المصطفى، عَلَّه يساعده على إيجاد حل.

و هذا الجديد، في هذه الهدية في حد ذاتها، لابد من مشاركة (كلير) فيه، فهو بينهما ويعنيهما هما الاثنان. تواصلُ هذا المساء سيكون لهذا الموضوع . الهدية. وكذلك الفيلم الذي شاهده على قناة2 mbc ، بعنوان BRIDE ، حصانه الذي سيزحف به في المناقشة عبر الأنترنيت على تاريخ Claire، ووجدانها الذي لا تعرف، هي، تاريخه العميق.

. مساء الخير كلير.

. مساء الخير سعيد.كيف الاحوال؟

. بخير. و أنت؟

. بخير.

. قرأت رسالة الصباح الإلكترونية؟

. نعم.جميل ذلك الشريط الذي صورته.طبيعة رائعة، وأنت أروع !

. ممم، أنت الأحلى. عندي جديد لك اليوم.

. ما هو؟

. شاهدت فيلما رائعا بعنوان BRIDE. قصة تهجير نسائي منسي في تاريخ الغرب بين أوربا وأمريكا.نساء من أوربا الشرقية ومن روسيا واليونان، يتم تهجيرهن في مشاريع زواج تنظمها شركات مختصة بإدارات وموظفين وسفن رحلات. عندما شاهدت الفيلم، تذكرت جدتك.قلت مازحا مع نفسي: أيمكن أن تكون من بطلات القصة والفيلم؟ خصوصا وأن وقائعه في بدايات القرن العشرين؟ ونحن الآن في بدايات القرن الواحد والعشرين.

. جميلة القصة سعيد. أكيد شوَّقتني لرؤية الفيلم. قل لي: أما زلت هناك في القرية؟

. نعم. ربما سأذهب غدا إلى مراكش.لكن عمي سعيد سيبقى هنا في مهمة خاصة.

. و ما هي؟

. يريد توثيق تاريخ القرية. لا أدري، أيبحث عن تاريخ مجتمع وثقافته،أم تاريخ مقاومة؟ إنما، بالمناسبة، عمتي فطومة أعطتني هدية لزواجنا، لن تصدقي كيف هي !

. صحيح؟ أخبرني عنها.

. ألا تنتظري حتى تفتحيها؟

. لا أستطيع. ألم ترها أنت. باسم حبنا سعيد قل لي، ما هي، أرجوك حبيبي.

. ثوبان أبيضان، و كتيب أشعار.

. رائع، هذه هدية ملائكية. تسرني رؤيتها.

. أعود بك إلى الفيلم. تعلمين، لقد عاشت مناطق من أوربا حروبا وأمراضا ومجاعات... كانت تهدد الجميع. وتسبب ذلك في فقر مذقع ونقصان طلبات الزواج، ما اضطر لجعل شركات وساطة اجتماعية بين أمريكا وأوربا.

كنَّ في سفينة واحدة في فيلم BRIDE:، روسيات، يونانيات، رومانيات... من جنسيات مختلفة ومتعددة. إنما الأغرب في التاريخ، أن الواقع و الحقيقة وقائع وحقائق، وليس ما هو مكتوب فقط. تصوري أن الاستغلال لهذا العمل الوسيطي يتم في أمور أخرى .... نسبة مائوية مهمة من النساء يتم خداعهن على أساس الهجرة للزواج، برسائل وصور رجال موعودين بالزواج بهم، لكن الحقيقة أنهن يتم استغلالهن في دعارة. حتى إن رجال أعمال أصبحوا مختصين في هذه الرحلات وهذه التجارة. ذكرني الفيلم بتجارة

العبيد الثلاثية في القرون الماضية بين أوربا وإفريقيا وأمريكا. ذكرني كذلك بواقع المجتمع المغربي.

.كيف ذلك سعيد؟

. في المغرب شبكات تهجير خاصة إلى دول الخليج وإلى تركيا وبعض الدول الأوربية كبلجيكا مثلا، تغلف باسم عقود عمل سياحي في فنادق، بينما يتم استغلال الفتيات في الدعارة والرقص في الكباريهات...

. خدع استغلال متشابهة.

. نعم.

. هل الفيلم بَيَّن أماكن التهجير للاستغلال في الدعارة؟

. لا بالعكس الفيلم دافع عن مبدأ رسالة الزواج، وصمود البطلة من أجل تحقيق أمنيتها وأمنية أسرتها. تصوري، آمال اجتماعية منتظِرة نجاح تجربة من سبقن للهجرة إلى أمريكا، البطلة تفكر في أخواتها الثلاثة. صورتهن من صورتها.هي تعقد آمالا على أن تهاجرن كذلك لأجل الزواج في أمريكا. لذلك ضحت بقيمة الحب الذي نما في علاقة خلال الرحلة البحرية من أجل مشروع الأسرة المستقبلي. والبطلة عصامية في فن الفصالة والخياطة

والعمل على الأزياء. لن أعطيك تفاصيل أخرى حتى تشاهدي الفيلم. سأبحث عن رابط إلكتروني له وأرسله إليك... ها هو قد وجدته:

http://www.imdb.com/title/tt0368619/

Set in 1922, is the story of a mail order bride, one of 700, aboard the SS KING ALEXANDER, who falls in love with an American photographer. She is bound for her new husband, in New York; he is on his way home to a failed marriage.

.

((بدأت القصة سنة 1922 لعروس رشحت للزواج عبرنظام البريد الإلكتروني، هي واحدة من 700 مرشحة ، على متن باخرة (الملك إسكندر) SS KING ALEXANDER ، و التي وقعت في حب مصور أمريكي على متن الباخرة المتوجهة إلى الولايات المتحدة الأمريكية لكنها مرتبطة بزوجها الجديد الذي ينتظرها بمدينة نيويورك، من أجل زواج قد يبدو فاشلا ...))

. وما موقع جدتي يا سعيد في هذا الفيلم؟

. في الحقيقة، لا علاقة. فقط إنه تاريخ بلادها ومجتمعها في حقبتها. تاريخ جيل بأكمله. ربما هي لم تهاجر بهذه .... هذه مهمتك للبحث فيها. فضول اجتماعي.

. سأبحث في الموضوع. عندي لك جديد هذا الأسبوع. إنما هو اهتمام بالمستقبل وليس بالماضي.

. ما هو يا مستقبلي الرائع؟

. ذهبت مع صديقتي RUTH إلى محاضرة جميلة حول الاتجاه الإنساني الجديد..

. جميل. إنما ما مضمون هذا الاتجاه؟

– في الحقيقة هو مذهب يريد أن يكون بديلا عن الأديان، كونيا داخل .... احتفظت بمطوية مُعرِّفة به حتى تراها ونناقشه. كما أنني اشتريت كتابا ألفه الأستاذ الذي ألقى المحاضرة، إنه أستاذ جامعي من الولايات المتحدة الأمريكية. سأرسله إليك قريبا.

. سأطلع على الموضوع لنناقشه أكثر. تعلمين أن عمي محمد جاء من ألمانيا مؤتمِرًا في ملتقى التسامح العالمي بمراكش. إنما رسالتهم في المؤتمر هي التسامح والتعايش والتلاقي. لا أدري إن كان هذا الاتجاه الإنساني يلتقي مع هذه القيم أم يريد طرح بديل عنها. على العموم، نؤجل مناقشته إلى حين .... قولي لي الآن...

. نعم سعيد...

. ما أحلامك الوردية الجديدة اليوم؟

بين يديه كتيب الأشعار الذي استعاره من سعيد مؤقتا. كذلك المخطوطات الملفوفة بعناية. وفي يومه هذا، وعده إمام المسجد برؤية بعض المخطوطات في منزله. مهمة سي محمد أصبحت عملية اليوم. غريبُ هذه المهمة، وجود قصيدة الشاعر أب الإمام، في الكتيب الذي أُهديَ لسعيد.غريبها كذلك، أنها أطول مما اطلع عليه من أبياتها فيما قبل وسجله منها كتابة.

ذهب سعيد في الصباح إلى مراكش، وبقي سي محمد لأجل هذه المهمة الخاصة. خاصة حقا. ف: سي محمد، يشعر بذاته تتداخل مع المهمة وبالخوف من بعض عناصرها، خوف من نسيانها أو عدم وجودها. عاود قراءة الأبيات بكاملها. ليس هناك حكم قيمة طبعا. ما دام إبداعا معيشا، جربه الإنسان وعبر عنه وترجمه نظما، فهو في غاية الجمالية. محترم، لأنه منتوج مرحلة من حياة شخص، من حياة جماعة، قرية، مرحلة... ألم يكن الآخرون هم الذين دونوا وكتبوا وليس صاحب الأبيات. وكلٌّ له حياته الخاصة يعيشها، يعانيها، يفرح بها، لا يُلزم من قبله أو بعده بها. هي استنتاجات ذهنية حضرت عقب معاودته القراءة للقصيدة. لم يبرح بصره سطورها إلا نداء صينية الشاي العائلية. صينية التلاقي والتواصل الأسري والاجتماعي. صينية تخرجك من كل خلوة أو عزلة أو غربة داخلية، لكي

تُعَيّشك الواقع اليومي، وتتبادل أفكارك مع الآخرين، حتى تخرج من مثالياتك وخيالاتك وظنونك، إلى واقعية متأقلمة مع اللحظة والزمن الواقعي والبيئة والمحيط. بصوت خافت ردد مع نفسه، قارئا ومبتسما :

ليت الهوى أسعد الفؤادَ امتطى الجوادَ لاحق الأبعاد

صاح الشوق نسيما هائجا اخترق السياج سكن الاسعادَ

ما لي لا اقتحم الخياما اقتحم حلم الحبيب أشارك الوسادَ

تحمر الخدود حين تنفتح الو رود بقطرات الصباح والندى

أسقيها قبلات حارة دا فئة تسري في العروق أمداد

أطوع شفتاي على تضا ريس رسمها جمال الأجساد

أشاكس الألفاظ والآهات صاخبة على مريد من لمسات النهادَ

أُبلسم شروخا منسية في الجسد كما في أعماق الفؤادَ

أظافري وخز الطبيب أسناني مفكُ كل الأزرار والوتاد

جسد الطبيعة خلقة بديعة حلم وديع ضم ولمس وهمس زادَ

عاشقان ثائران على كل لباس صنعته أيادي العباد

انسلاخ على كل القيود على كل الجلد باختراق المنفتح جادَ

لحن الآهات لمس كل الجهات تموج الأجساد في أعماق الوهادَ

أسدلت ستائر منسكبة على كتف على ذراع مقشعر زاد الجهادَ

سقيت رويت شفيت كفيت رغبات حسرات اَبعَدَت الأكباد

هَيتَ لك فيك منك بك ارفعي الجيد اخلعي حُلي القلادَ

ارقصي قهقهي تَحَمّقي بكل ما جاد عقل السكران به زيادَ

آه آه آه، بس، ضف، له وه، اح، ها، عَّنف ما أفاد

لا جَريُ الخيول يكفي في سباق المسافات الطويلة عادَ

أبياتي شوقي وتوقي وإن يطولا لا ينتهي تحقيق السعادَ

نُسَخ رسائل بعثت لأجل المقاومة في عهد جده الشيخ السيد. يوميات الشاعر شعيب. هي سيرة رجال القرية وضيوفها وأحداثها الاجتماعية في الفرح والحزن.

ما رواه الشيخ السيد على مسامع شعيب رحمهما الله، حول رحلة الحج ورفقة الشيخ ماء العينين، ووصف الطريق والمناسك.

رسالة بتوقيع المعطي بن شعيب، المتوسل لله: اللهم نَجِّ عبادك من المناكر...

رسالة غضب اجتماعي تعري انحرافات السلوك، كما تتضرع لله من ضعف الحال، وتعوذ بالله من كفر الفقر وتسببه في الويلات التي لطمت الأعراض وغلّبت المادة على الروح... محطات مجاعة ووباء وحرب... غياب معيل ومخرج من الكرب... أسر تدهورت أحوالها وانتقلت من غنى إلى فقر، ومن عز الى ذل، ومن عمارة إلى خراب وتهميش...

تساءل محمد بن المصطفى مع فحوى الرسائل والمخطوطات:

تُرى، ما مصير أسر الشهداء الذين ماتوا في المقاومة؟ ما مصير الأسر النازحة للقرية والهاربة من الجفاف الذي أصاب بعض السفوح والسهول؟

والأوبئة التي انتشرت بضواحي تارودانت كما بداخلها؟ الأجوبة تجسدها أوضاع القرية، حال نسائها وأطفالها. أخبار دعارة مرتمية بين منازل مختبئة عن الأنظار... فراغ القرية من شبابها. مَنِ استفاد من دراسة وعمل جيد، نسبة قليلة. ومن هاجر وتشرد، الله أعلم بحاله. حتى إنه لا يرضى بالعودة للقرية خاويَ الوفاض!

ما رواه بوعلام ، حكم واقعية. ناقد زمانه. حادُّ اللسان والملاحظات. آثَرَ حياة الترحال وفلسفة المجاذيب الهداويين على كل شيء آخر.

آخر غرائبه الحكيمة ما رُوي لسي محمد بالأمس:

صرخ فيه أحد رجال القرية: قم للصلاة آ بوعلام! الأذان لها الآن.

جواب بوعلام : يْلاَ الصلاة علينا كاملين. هاديك الفيرما (الضيعة) اللي عندك اعطِها لبوعلام. دين ودنيا ياك آ الفاهم!

قهقه الجميع وانصرفوا تاركين بوعلام في حاله، مُصَرِّفين جوابه بتعليقهم: مسكين هبيل ما عليه شرع.

ربما لسانه رمز حريته، لا يريده أن يقفل أو يسرط في بلعومه كما هو واقع لمجموعة من الناس. لا يستطيعون تعبيرا. هو خوف مركب داخلي. خوف

من فقدان توازن نفسي ومن اضطراب شخصي. وخوف من هيبة المخزن وعيونه، وروح انتقامه من كل متمرد على بركته وضريبته.

أخذ تنهيدة عميقة، لام فيها بوح بوعلام. لم يكن مجرد هذيان. كان رسالة مشفرة، ترجمها إلى خطاب واضح في ذهنه:

. أئذا كنت عالما متعلما، بارزا في فكر أو علم، مثقفا بلغتكم العصرية، ما هي درجة وعيك بواقع الناس؟ ومساعدتك لهم للخروج من التخلف والفقر؟ أنت أيها السيد ابن السيد، تنتمي إلى أسرة تصوف وعبادة وعلم ومقاومة، كيف ترضى بواقع منخور وتتشرف بلقب اجتماعي تقديري؟ كيف ترضى بكرسي أعمدتُه متكئة على، وَفوق أمعاء فارغة، وعقول جاهلة، وأيادي متسولة ومتوسلة، ترضى باسترخائك على حساب ضغط تموضعك على هذا الكرسي القاهر؟

حسرات تفكير وضع معها محمد بن المصطفى بن السيد خطوطا على عبارات من مقولة بوعلام التي سجلها. بقيت عبارة الجادارميا (الدرك)... ما عُشَريتها؟ أكيد يعني بها الرشوة. لكن، هل الرشوة مقتصرة على مجال وفئة دون أخرى؟ طبعا لا. هكذا استنتج.

يتذكر قراءته لجورج لوكاتش، تحطيم العقل، والبناء الهرمي للرشوة والفساد وكيفية تفسير صعود ونجاح كل نظام استبدادي واستمراريته وتحكمه في

الجميع، بالفساد والرشوة. أكيد المنطق المركب هو الذي يستطيع تفسير الظواهر المعقدة في الواقع.

وضع كفه الأيمن على جبينه.لم يكن يعلم أن معاناة التفكير ستخلق شقاوة مع موضوع القرية وتاريخها. في حين أجواء ملتقى التسامح، لم تخلق عنده مثل هذه الدرجات من التوتر.

أيكون الالتزام بالرشد سبب الشقاوة؟ أيكون ارتباط الرشد بالالتزام سبب التوتر والمعاناة؟ أتكون راحة الهبال والحمقى في ابتعادهم عن كل مسؤولية واعية مباشرة تجاه المجتمع ومؤسساته؟ هو الوعي الشقي. وفي مثلنا المغربي، (ما في الهم غير اللي كيفهم) الذي يفهم كثيرا يعيش مهموما.

– الشكوى بك لله يا بوعلام. تكلم مازحا ومبتسما مع نفسه.

لم يكن بوعلام هو الذي أقحمني، هي رغبتي في تسجيل تاريخٍ، وترك بصمات وبحث عن تاريخ هذه الذات. وتنقيب عن درجات الأمانة والمسؤولية التي بقيت على عاتقي في ارتباطي الوجودي والزمني والاجتماعي والأسري والثقافي.

سأجعل حقيبة خاصة لهذه الوثائق او لنُسَخِها. أكيد أحتاج إلى مزيد من الوقت لإعادة إخراجها في حلة كتابية جديدة.

استعان بأجندة أخذها من حقيبته. أخذ قلمه ـ سيجاره، وكتب أول ما ارتسم من ملاحظات حول المقاومة أولا:

لم تكن حركة المقاومة ظاهرة للعيان مثل أي عمل نهاري أو حفل ليلي تحت أضواء مكشوفة قمرية. كانت جيوبا خفية تدخل فيها يديك، فتخرج مرة بيضاء صافية مثل معجزات النبي موسى عليه السلام (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)، أو تخرج حمراء قانية بدم الشهداء. وبين مهمة الأنبياء ومهمة الشهداء، ينبعث قلب طفل صغير بريء، تسمع صراخه نداء لحياة المستقبل. يحتاج منك إلى لبن رضاعة، ودفء حنان، وعشب لعب بُسُطه خضراء.

ذلك الطفل هو الغد الذي من أجله نفرقع النجوم في السماء، فتُشِّع معها مسالك الحياة، على هذه الأرض التي تؤمنا جميعا.

المقاوم لا تراه بالليل أو بالنهار. فهو في قعر البئر يصفي مياهه من الطمي والطين، أو فوق شجرة يقوم بتشذيب أغصانها، أو خلف القمر يحثه على الإضاءة أكثر في عتمة الليل. وقد يكون ثمن النور احتراقه مثل فراشة تعانق قدرها الحتمي.

المقاومة جيوب إذاً خفية. لباسها جماعات بشرية عادية، أوجه مستأنفة للحياة، ودم يضخ وقود النار ليحارب رمادية الحياة.

لم يكن المقاومون الذين أتوا إلى قرية ابن السيد فريقا مُجتمعا، كما لم يكن تطوع أفراد القرية باديا. فالجيوب تنتشر عمولاتها بين الأنحاء والجبهات. و كل واجهة أو جبهة أمامية لمعركة من المعارك، تجدها مزخرفة، مزركشة، ملونة من كل القبائل والأفخاذ. هكذا استنتجت قراءته لرسالة مخطوطة ومبعوثة لشاعر القرية بعد سنتين من انخراط القرية في حركة المقاومة. رسالة تضم لائحة الذين شاركوا في مواجهة للمستعمر في إحدى المعارك بسفوح سوس المتاخمة لجبال الأطلس الصغير. فمن بين العشرة شبان الذين التحقوا أول الأمر لم يكن الحضور في تلك المعركة سوى لاثنين، أشير لهما بلقب الانتماء للقرية والقبيلة. وكان قائد هذه الجبهة هو عبدالعزيز العبدي. أما ابن الشيخ ماء العينين، فتشير رسالة أخرى إلى أنه كان في جبهة مستعدة لمحاصرة مرور الجيوش الفرنسية عبر ضفاف درعة.

ماذا ستكونه إذاً تلك الزيارات لقرية ابن السيد ومراسلاتها؟ استراحات محارب؟ تجديد ولاءات؟ نسيج مترابط الخيوط بين القبائل والمناطق الجبلية والمنبسطة الخضراء أو الصحراوية القاحلة؟

ماذا ستكونه تلك الأنسجة من الثوب والزرابي، عربون وفاء ومصاهرة بين قلوب رجال المقاومة؟

ماذا لو كانت كل قبيلة أو قرية تمد بعشرة من رجالها؟ طبعا حركة مقاومة كبيرة، لا تؤثر على الحياة اليومية، ولا على العبادة أو العمل...

وصدق قوله تعالى الذي تضمنته إحدى الرسائل الطالبة لمزيد من الدعم البشري: (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون).

تلك خفايا حيوية لجيوب المقاومة المدفونة في قعر البئر وخلف القمر وبين أغصان فروع الأشجار، بين هذه المخطوطات المتنوعة. ذلك تاريخ لم يكتب بعد !